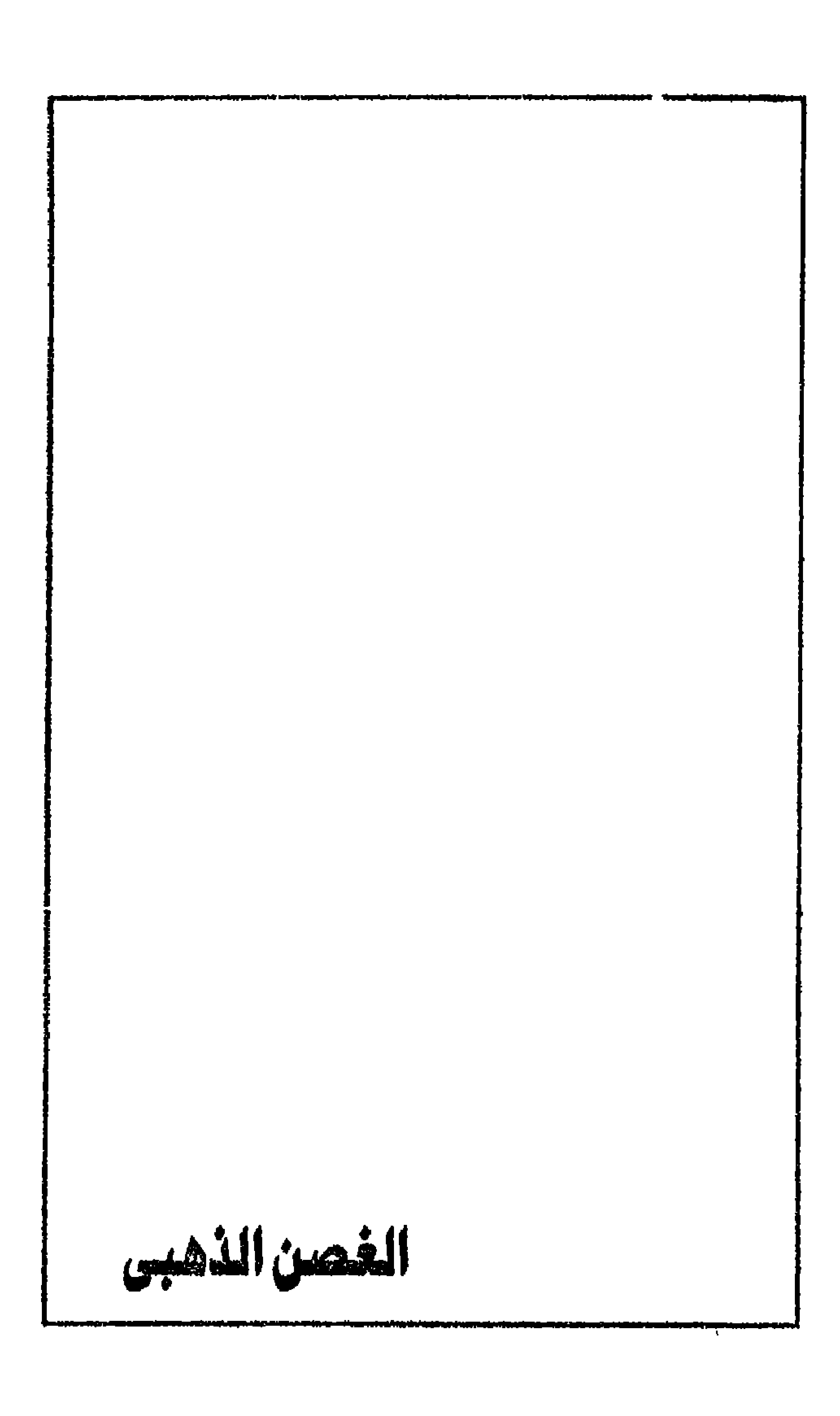
الغصن الذهبى لفريزر



الهيئة المصرية العامة للكتاب

فوزى العنتيل

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤


الغصن الذهبى

ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران

إهـــــــداء2006

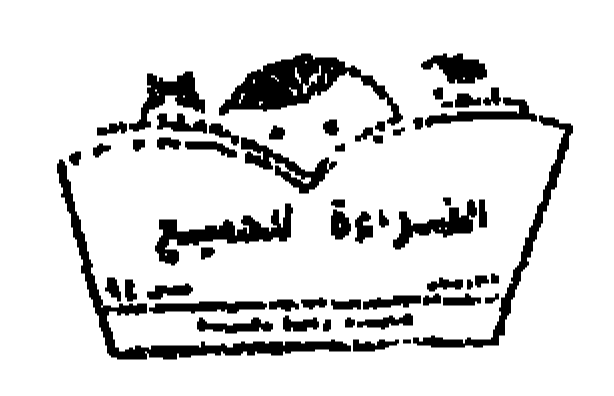
ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران

الإسكندريـة

الغصن الذهبى

لفــريزر

فوزى العنتيل



مهرجان القراءة للجميع ٩٤
مكتبة الأسرة
(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

مراد نسيم

أحمد صليحة

المشرف العام

د . سمير سرحان

الغصن الذهبى
لفريزر
فوزى العنتيل

مقـــدمة :

منذ وقت بعيد أخـذت دراسة الشعوب البدائيـة تحتل اهتمام مجمـوعة قديرة من العلمـــاء الذين بـدءوا بدراسة مجالات معينـة من السلوك الانسانى فى ضــوء المجموعات الضخمة من المعلومات التى تجمعت من سـائر أنحاء الأرض ·

وخلال النصف الثـانى من القـرن التـاسع عشر استطاعت مدرسة « علم الانسان » البريطانية أن تحقق كثيرا من الانجازات الهامة فى حقل التراث الشعبى بفضل جهــود أعلامها البـارزين : « تيلــور E. B. Tylor و « أندرو لانج A. Lang ، وجيمس فريزر Legends

فقد قدم « تيلور » رائد هذه المدرسة دراسات هامة منها دراسته للتاريخ المبكر للجنس البشرى والتى صدرت فى عـــام ١٨٦٤ ، والتى أتبعهتا بمؤلفــه الشهير فى

الانثروبولوجيا وهو : « الثقافة البدائية » فى عام ١٨٧١ ، فى مجلدين ، ويتناول تطور الأساطير والفلسفة والدين واللغة والفن والعادات • وقد تأثر به كثير من الدارسين ومن بينهم « فريزر » •

أما « اندرو لانج » فهو الذى جذب الاهتمام الى وجود كثير من الأفكار البدائية فى الحكايات الحديثة ، ودفع الى الأمام فكرة أن وجود مثل هذه الملامح يبين أن هذه الحكايات موروثة من أقدم الأزمنة •

كذلك فان مؤلفات « فريزر » وفى مقدمتها « الغصن الذهبى » قد غطت حقلا شاسعا فى مجال الأنثروبولوجيا ، وتركت طابعا ظاهرا على الدراسات العلمية للأديان البدائية • وقد شهد له العلماء ، حتى أولئك الذين اختلفوا معه فى الرأى ـ بسعة معرفته وعمقها والألمعية المتوهجة •

لقد استطاع هؤلاء الرواد أن يتوصلوا الى نتائج بالغة الدلالة بالمقارنات التى قاموا بها بين المأثورات الشعبية الأوربية وبين المادة الغزيرة المستقاة من الشعوب البدائية فى أجزاء مختلفة من العالم •

ويعتبر هؤلاء العلماء هم الذين وضعوا اللبنات الأولى لدراسة مقارنة حقيقية للتراث الشعبى بتركيز إهتمامهم

على الملامح الانسانية العامة مستقلة عن المجالات القومية ، وان كانوا فى الوقت نفسه قد تعرضوا لمآخذ الدارسين من أنهم قد أهملوا هذه المجالات الأخيرة ٠

فلقد سيطرت فكرة « الارث » على اتجاه هذه المدرسة ٠ وقد نبعت هذه الفكرة من ملاحظة الدارسين لهذا التشابه الغريب بين قدر كبير من المعتقدات والعادات والقصص فى جميع أنحاء العالم ، ليس فقط بين الشعوب البدائية ، ولكن بين أكثر الشعوب تحضرا ٠

فقد وجدوا أن هذه المأثورات الشفوية ، والتى هى أساسا وبخاصة بالجانب الأمى والمتخلف من المجتمع متشابهة ، بل وحتى مطابقة للمعتقدات والعادات والقصص المتداولة بين الشعوب البدائية ٠

من هذا التشابه نشأ الافتراض بأن مثل هذه الأفكار والممارسات الجارية بين الشعوب المتحضرة لابد وأن تكون قد انتقلت ـ عن طريق الارث أو غيره ـ من الحالات البدائية للمجتمع ٠

وفى هذه الحقبة كان مفهوم التطور العضوى فى مجال البيولوجيا ما يزال جديدا ، ولم تستوعبه بعد ـ

أذهان الدارسين بصورة كافية : وإذا حدث أن قبل ، فانه كان يطبق بشكل مبالغ فيه ٠

ويظهر تاريخ البحث أنه فى بداية الأمر لم تكن هناك سوى ملاحظات اعتباطية على التشابه الغريب بين العادات والحكايات ، غير أن التطور الطبيعى فى الدراسة أنشأ المنهج المنظم الذى أدى الى حشد كثير من هذه النظائر ٠٠ وقد تأثر الدارسون الأوائل تأثرا شديدا بهذه المتشابهات ، فلم يكونوا ميالين الى الاستقصاء بدقة تامة مثلما كانوا يفعلون فيما يتعلق بالتناظر أو بالتطابق ٠

وقد أنتجت هذه النظرة صياغة مصطلح : «الموروثات الثقافية » الذى ارتبط بالعالم الأنثروبولوجى الكبير « تيلور » ، ولو أن المفهوم نفسه ، أو بالأحرى الفكرة التى وراء المفهوم قد استخدمها التطوريون الأوائل مثل ، « ماك لينان » وغيره ٠٠

وقد عبر « تيلور » فى كتابه : « الثقافة البدائية » عن فكرته قائلا : « انه من بين الادلة التى تعيننا على تعقب السبل التى سلكتها حضارة العالم » طائفة هامة من الحقائق تدل على ما وجدت أنه من الأوفق أن أطلق عليها اصطلاح « الموروثات الثقافية Survivals » ، وهذه الحقائق

هى : « الممارسات والعادات والأفكار وغيرها مما ظل مستمرا بقوة العادة فى مجتمع جديد يختلف عن الموطن الأصلى لها ، وهكذا فانها باقية كشواهد وأمثلة لثقافة أكثر قدما عنها ثقافة أكثر جدة » .

وفى الأنثروبولوجيا الاجتماعية نجد أن « المورو ثات الثقافية » تعنى ، خاصة ثقافية لا تزال باقية بشكل غير واضح ، أو بغير دور وظيفى ، ولكن يفترض أن وظيفتها كانت قائمة بطريقة أكثر دلالة فى أحد الأزمنة السابقة ، وعلى ذلك فانها تشير بصورة مفيدة ـ بالنسبة لأغراض النظرة التاريخية ـ الى الأشكال الثقافية المبكرة .

وقد ارتكز منهج التطوريين فى الأنثروبولوجيا ابتداء على مفهوم الموروثات الثقافية نظرا لأنه يسمح للدارسين باعادة بناء المراحل الماضية بالاعتماد على الحالات المعاصرة .

ولقد ظل هذا التفسير حيا بالنسبة لبعض علماء الاجتماع مثل : دور كايم ، والفولكلوريين مثل :فريزر ، وأندرو لانج .

ومنذ ذلك الوقت الذى صاغ فيه « وليم تومز » هدف الفولكلور بأنه دراسة الآثار الشعبية ، فان الفولكوريين

قد انحصر اهتمامهم فى فحص الثقافة الحضرية ، أو المخلفات الثقافيـــة ٠

ولقد حدد « لانج » فى سنة ١٨٩١ منهج الفولكلور بأنه دراسة الطقوس القروية الحديثة ، وقصص الخوارق والمعتقدات ، كموروثات ثقافية ٠ J Franzer ،

ومن بــين الأسباب التى دعت « لانــج » الى هذا التحديد هو تعريف « تومز » للناس The folk بأنهم هم : ذلك الجزء من السكان الذى استمسك بالتقاليد والعادات القديمة ، يقصد بذلك الفلاحين ،أو سكان الريف ٠

كما أنه ينبغى أن نشير الى أن أحــد الأسباب التى أثرت فى اتجاه هذه المدرسة ، وبصفة خاصة فيما يتصل بدراسة الحكايات الشعبية ، هو رد الفعل ضد المدرسة الميثولوجية الألمانية التى أرادت أن تفسر الحكايات الشعبية بأنها بقايا من الأساطير الهندو ـ أوروبية وبخاصة أساطير الطبيعة ٠

فأظهرت مدرسة علم الانسان الانجليزيـــة الأساس الثقافى للحكايات الشعبية ، وكان رأيها أنها بقايا حضرية لثقافات الماضى البعيد ، وأن من الأفضل أن تفسر من زاوية ممارسات المجتمعات البدائية ٠

وقد استخدمت هذه المدرسة بصفة عامة « المنهج المقارن » في دراسة مواد الفولكلور ، وهذا المنهج يرتكز على ملاحظة عامة وهي أن الثقافة تتطور بصورة متوازية ، وبالتالي فان كل شعب يمر بهذه المراحل العامة من التطور ولكن ليس بنفس الدرجة •

ومهما يكن من أمر ، فان الدارسين قد عرفوا لرواد هذه المدرسة مقدرتهم على ابراز كثير من ملامح التفكير البدائي التي تتطابق بشكل ظاهر في جميع أنحاء العالم ، والتي حددت الاعتقاد الشعبي أينما وجد •

كذلك فان هؤلاء الرواد قد برهنوا على أهمية الطقوس في مجال الدين ، وعلاقة الطقوس بالمعتقدات والأساطير ، وأنهم قد بذلوا جهودا عظيمة في جمع هذه الأنواع من الممارسات الغريبة والمعتقدات والحكايات من سائر أنحاء المعمورة ، وعكفوا على مقارنتها بعضها ببعض مثلما نجده واضحا في « الغصن الذهبي » الذي اشتمل على اثنى عشر مجلدا تمثل مجموعة عظيمة القيمة في هذا المجال ، استطاع فيه « فريزر » أن يعرض المعلومات في تتابع منطقي يرسم للقارىء صورة واضحة لتفكير الانسان وأفعاله في أكثر أطواره بدائية •

●●●

عن المؤلف :

ولد العالم الاسكتلندى جيمس جورج فريزر فى جلاسجو فى أول يناير عام ١٨٥٤ ٠

وتلقى علومه الجامعية فى جلاسجو ثم فى كلية ترنتى بكمبروج ٠

وقد انتخب زميلا فى كلية ترنتى فى عام ١٨٧٩ ٠ وقد بدأت دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى انجلترا بتعيينه أستاذا للأنثروبولوجيا فى جامعة ليفربول عام ١٩٠٧ ٠

وقد عرف « فريزر » موضوعه بأنه ذلك الفرع من علم الاجتماع الذى يتعلق بالشعوب البدائية ٠ وقد كان طبيعيا بالنسبة له أن يهتم بالبحث التاريخى ، وأن يستخدم فى دراسته وجهة النظر التاريخية ٠

وفى سنة ١٩١٤ حصل فريزر على لقب « سير » ٠ كذلك فقد نال تكريما كبيرا من الدوائر العلمية ، واختير زميلا بالجمعية الملكية ، وبالأكاديمية البريطانية ، وأهدته الجامعات المختلفة كثيرا من الألقاب الفخرية ، فلقد منحته أكسفورد ، وجلاسجو الدكتوراة فى القانون ، ومنحته

كمبردج الدكتوراة فى الأداب ، وحذت حذوهـا جامعات أخرى فى خارج بريطانيا مثل جامعة باريس ، وجامعة استراسبورج .

وقد توفى « فريزر » فى سنة ١٩٤١ .

وقد كتب « فريزر » عددا كبيرا من المؤلفات والأبحاث لكن مؤلفه الرئيسى الذى ارتكزت عليه شهرته كمؤلف هو كتاب : « الغصن الذهبى » الذى صدر فى سنة ١٨٩٠ فى جزءين ، ثم قام باعادة نشره تحت سبعة عناوين مختلفة فى اثنى عشر مجلدا فيما بين سنة ١٩٠٧ ، ١٩١٥ .

وفى سنة ١٩٢٢ استجاب « فريـزر » للرغبـات الكثيرة التى طلبت منه ايجاز هذا المؤلف الضخم ، وأيضا لكى ينتشر الكتاب فى دائرة من القراء أكثر اتساعا ، فقام باصدار طبعة مختصرة فى مجلد واحد ، قفاها بمجلد ثان فى سنة ١٩٣٦ .

وقد بذل فى هذا الموجـز جهدا شاقا للابقـاء على الأسس الرئيسية للكتاب مع قدر من الشواهد التى تكفى لتصويرها بوضـوح .

وقد أشار الى أنه فى هذا الموجز لم يقم باضـافة موضوعات جديدة ، وأيضا فانه لم يغير شيئا من وجهات النظر التى سبق له أن عبر عنها فى الطبعة الأخيرة .

ويعتبر « الغصن الذهبي » دراسة واسعة للعبادات القديمة والفولكلور تشتمل على طائفة وفيرة من البحوث الأنثروبولوجية ٠

وقد أثار هذا الكتاب اهتمام الدارسين فأشادوا بوفرة المادة التي اشتمل عليها ، وأهمية الموضوعات التي تناولها والقضايا العديدة التي أثارها في مجالات متنوعة ٠ وان كانت النتائج التي انتهى اليها قد تعرضت لمناقشات مختلفة سوف نشير الى نماذج منها فيما بعد ٠ وان كنا نجد من المفيد هنا أن نورد بعض أسماء أهم الدارسين ومؤلفاتهم التي ترددت فيها الأصداء العالية لهذا المؤلف القيم ٠ فنذكر منهم : « ماريت » الذي كان رئيسا لجمعية الفولكلورالانجليزية في سنوات الحرب العالمية الأولى في كتابه : « علم الانسان » ٠ واليانور هل في كتابها : « فولكلور الجزر البريطانية » ٠ و « فون سيدو » في : فصوله المختارة في التراث الشعبي ، و «سيجموند فرويد» في كتابه : « الطوطم والتابو » ٠ و « الكسندر كراب » في كتابه : « علم الفولكلور » ٠ و « ول ديورانت » في مؤلفه الشهير : « قصة الحضارة » ٠ و « هربرت ريد » في كتابه : « الفن والمجتمع » ٠ و « ستيث طومسون » في كتابه : « الحكاية الشعبية » ٠

ومن مؤلفات « فريزر » أيضا : الطوطمية سنة ١٨٧٧ ٠ أذونيس وأيتس وأوزوريس ، دراسة في تاريخ

الديانات الشرقية سنة ١٩٠٦ (وقد تضمنه الغصن الذهبى فيما بعد) .

• مسائل فى عادات البدائيين ومعتقداتهم ولغاتهم سنة ١٩٠٧ .

• الطوطمية والزواج من غير ذوى القربى (الزواج الاغترابى) ١٩١٠ .

• الاعتقاد فى الخلود ، وعبادة الموتى ٣ أجزاء وقد صدر فى أعوام ١٩١٣ ، ١٩٢٢ ، ١٩٢٤ .

• الفولكلور فى العهد القديم سنة ١٩١٨ .

• عبادة الطبيعة سنة ١٩٢٦ .

• أساطير نشأة النار سنة ١٩٣٠ .

• الخوف من الموتى فى الديانة البدائية ، ثلاثة أجزاء ، وقد صدر فى أعوام : ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ ، ١٩٣٦ .

« ملوك الغابة »

يقول « فريزر » فى مقدمة « الغصن الذهبى » ان الغرض الأولى من هذا الكتاب هو :

تفسير القاعدة الغريبة التى تنظم تعاقب كهنة الربة ديانا فى أريشيا بايطاليا . وبعبارة أخرى فان موضوع

هذا الكتاب هو تقديم تفسير معقول للتقليد الكهنوتي في غابة « فيمي » حيث تقوم عباده « ديانا » التي أنشـــأها « أورستس » الذي يقال انه بعد أن قتل « ثاوث » ملك كريميا هرب مع أخته الى ايطاليا مصطحبا معه صورة ديانا في حزمة من العصي •

وقد نقلت عظام « أورستس » بعد موته من أريشيا الى روما ودفنت أمام معبد « ســــاتيرن » في منحدرات كابتيلاين بجانب معبد الكونكورد •

ونعرف من « فريزر » أنه عندما شرع لأول مرة في حل هذه المشكلة قــدر أن ذلك يمكن أن يتم في ايجاز شديد ، ولكنه وجد بعد قليــل أن معالجــة الموضوع كما ينبغي ، أو على الأقــل بوضوح يقتضي منــاقشة كثير من الأسئلة العامة المتصلة بهذا التقليد ، ومن ثم فــان هذه المناقشة أخذت تتشعب وتحتل مساحات أكثر فــأكثر ، وتفرع البحث في اتجاهــات متعددة حتى امتــد الكتاب الأصلي ذو الجزءين الى اثني عشر مجلدا عدة فصولها تسعة وستون فصلا • وهي التي نحاول أن نلخصها في ايجاز شديـــد •

في معبد نيمي الذي أشرنا اليه نمت شجرة معينة لا يجوز كسر غصن من أغصانها • ولا يسمح الا لعبد هارب

أن يكسر ــ اذا استطاع ــ أحد هذه الأغصان · ونجاحه في هذه المحاولة يؤهله لمنازلة الكاهن ، فاذا ماتم له قتله فانه يتولى الحكم مكانه متخذا لقب : ملك الغابة ·

وطبقا للفكرة العامة عند القدماء فان هذا الغصن المصيرى كان هو : « الغصن الذهبى » الذى انتزعه « انياس » قبل أن يشرع فى رحلته المهلكة الى عالم الموتى ·

ويقال ان هروب العبد يمثل هروب « أورستس » ، أما منازلة الكاهن فانها تعيد ذكرى التضحيات البشرية التى قدمت لديانا يوما ما ·

وقد ظلت قاعدة « الخلافة » التى تتم باستخدام السيف باقية حتى عصر الأباطرة الرومان ·

ومن بين الطقوس المختلفة كانت النار تلعب دورا هاما فى الاحتفالات التى تقام من أجل « ديانا » فى نيمى فى الثالث عشر من أغسطس فى كل عام ، وكانت المشاعل تملأ غابة « ديانا » ، كذلك وجدت تماثيل من البرونز تمثلها وهى ترفع مشعلا بيدها اليمنى ·

وكانت النساء التى استجابت لضراعتهن يأتين متوجات بالأكاليل حاملات مشاعل مضيئة للوفاء بنذورهن فى معبدها ·

وعلى هذا يتضح التشابه بين هذه الممارسات وبين الممارسة الكاثوليكية الخاصة باهداء الشموع المقدسة للكنائس ٠

والحديث عن « ديانا » يثير بالطبع الحديث عن مقابلها الاغريقى الربة « أرتميس » وطقوس عبادة « هيبوليتس » معشوقها الذى مات فى ريعان شبابه ٠

وهنالك كثير من هؤلاء الشهداء الذين عشقتهم الربات ، والذين نصادفهم كثيرا فى الأديان القديمة ، ويعتبر « أدونيس » أكثرهم شيوعا ٠

ولأن أرتميس كانت ربة عظيمة للخصب فى الأصل ، فلابد أن تكون تلك التى تهب الخصب للطبيعة هى نفسها خصبة وفقا لمبادىء الديانة المبكرة ٠ ولابد اذن أن يكون لها قرين ذكر ، وقد كان هو « هيبوليتس » الذى كانت تهدى اليه خصلات الشعر من شباب وعذارى « ترززين » قبل الزواج بغرض تقوية ارتباطه بالربة ٠ وبذلك تقوى خصوبة الأرض والماشية والبشر ٠

ولما كانت « ديانا » مثل «أرتميس » ربة للخصب بعامة ، ولانجاب الأطفال بخاصة ٠ فقد كانت مثل نظيرتها الاغريقية فى حاجة الى قرين، وهذا القرين هو « فيربس » ٠

وكان « فيربس » هو أول ملوك نيمى ، والسلف الأسطوري أو المثال المحتذى لسلسلة الكهنة الذين قالوا على خدمة « ديانا » متخذين لقب ملوك الغابة ، والذين لاقوا مصيره الفاجع أيضا ·

وكانت الغابة تمثل « ديانا » ملكة لها ، وكانت فيها الشجرة التى تتجسد فيها ديانا ، وكان من واجب الكاهن حراسة هذه الشجرة ، وكان يحتضنها كزوجته ولا يقتصر الأمر على عبادتها · وما تزال عادة تزويج النساء والرجال للأشجار قائمة فى الهند وفى أجزاء أخرى من الشرق كما يقول فريزر ·

ومما تقدم يمكن أن نستنتج أن عبادة « ديانا » فى غابتها المقدسة فى نيمى ، كانت ذات أهمية قصوى · وأنها تعود الى أزمنة سحيقة ·

وكانت « ديانا » تعتبر ربة للغابات والوحوش ، وربما أيضا للماشية ولثمار الأرض ، وكان يعتقد بأنها تبارك الرجال والنساء لكى ينجبوا ، وتساعد الأمهات عند الوضع ·

ولكن هذه النتائج فى حد ذاتها ليست كافية ــ كما يقول فريزر ، لتفسير القاعدة الغريبة لتوارث الكهنوت ،

ومن ثم فـان استعراض مجالات أخـرى أمر ضرورى ٠ وسوف تكون ـ كما قرر المؤلف ـ دراسة طويلة وصعبة ولكنها تتضمن التشويق وسحر رحلة الاكتشاف فى بلدان كثيرة تاركين خلفنا ايطاليا مؤقتا ٠

وفى الفصل الثانى الذى خصصه للملوك الكهنـة نواجه طائفة من الأسئلة التى تبحث عن حل :

لماذا كان كاهن ديانا فى نيمى الملقب بملك الغابـة يقوم بقتل سلفه ؟

ولماذا كان قبل أن يفعـل ذلك يقوم بانتزاع غصن من شجرة بعينها طابق القدماء بينه وبين الغصن الذهبى عند فرجيل ؟

وأول نقطة تجدر الاشارة اليها هى لقب الكاهن الذى اتخذه ملك الغابة ، ثم وصفه لمقره بأنه مملكته ٠ ويمكن القول بـأن اتحاد اللقب الملكى مع واجبـات الكاهن كان شائعا فى ايطاليا وفى اليونان قديما ٠ وفى روما وغيرها من المدن اللاتينية كان هنالك كاهن يسمى ملك الطقوس المقدسة ، وكانت زوجته تحمل اللقب نفسه ٠ وفى آثينا الجمهورية كان الحاكم السنوى يسمى الملك وتسمى زوجته ملكة وكانت وظيفة كل منهما وظيفة دينية ، وهنالك أمثلة

أخرى من الاغريق عن ملوك بالاسم فقط ، وكانت واجباتهم كهنوتية على ما يظهر ٠

وهذا الجمع بين السلطتين الكهنوتية والدنيوية شيء مألوف كان موجودا فى آسيا الصغرى ٠ وكذلك فان بعض باباوات روما فى العصر الوسيط وبعض ملوك التيوتون فى عصر الوثنية وملوك مدغشقر قد جمعوا بين السلطتين الزمنية والروحية ٠

وفى العصور القديمة كان يتوقع من الملوك أن ينزلوا المطر ، ويجعلوا الشمس تشرق فى بعض المواسم لكى تنمو الغلات وغيرها ٠

وفى المجتمعات المبكرة كان الملك فى الغالب ساحرا وكاهنا فى الوقت نفسه ٠ وهذه الفكرة تقود بالطبع الى واحد من أهم موضوعات الكتاب وهو : السحر ٠

(السحر التعاطفى)

مبادىء السحر : اذا قمنا بتحليل مبادىء الفكر التى يقوم عليها السحر نجدها على الأرجح تنقسم الى قسمين :

(أ) أن الشىء ينتج شبيهه ، أو أن النتيجة تماثل السبب ٠

(ب) أن الأشياء التى إتصلت ببعضها ذات مرة تظل تؤثر في بعضها عن بعد حتى بعد قصم الصلة المادية ٠

ويسمى الأول مبدأ التشابه ، ويسمى الثانى مبدأ الأتصال أو التأثر بالعدوى ٠ **واستنادا على المبدأ الأول** فان الساحر يستخلص أن باستطاعته احداث أى تأثير يرغب فيه عن طريق محاكاته ٠

واستنادا على المبدأ الثانى فانـه يستخلص بأن أى شيء يفعله بشيء مادى فانه سوف يؤثر بنفس الدرجة على الشخص الذى اتصل به ذات مرة سواء أكان يشكل جزءا من جسده أم لا يشكل ٠ كذلك فان السحر يمكن أن ينقسم الى قسمين : **نظرى** ، **وعملى** : وكان الساحر البدائى يعرف الجانب العملى من السحر فحسب ، فهو لم يقم أبدا بتحليل العمليات الذهنية التى تقوم عليها ممارساته ، ولم يحاول أبدا أن يتأمل المبادىء المجـردة التى تنطوى عليهـا هذه الممارسات ٠ وكان فى أعماقه ، شأنه شأن معظم الناس ، أن المنطق ضمنى وليس صريحا ظاهـرا ، وبايجاز فـان السحر بالنسبة له دائما « فن » لا « علم » ٠ اذ لا وجود لفكرة العلم ذاتها بالنسبة لعقله المتخلف ٠

ويقول فريزر : فـاذا كان تحليلى لمنطـق الساحـر صائبا ، فان مبدئى السحر الرئيسيين يصبحان مجـرد نوعين مختلفين من الاستخدام الخاطىء لترابط الأفكار ٠

فالسحر عن طريق المحاكاة يقترف خطأ افتراض أن الأشياء التى تشابه بعضها هى شىء واحد ، والسحر عن طريق العدوى يقترف خطأ الافتراض بأن الأشياء التى اتصلت ببعضها ذات مرة تظل على اتصال دائم .

غير أن الفرعين عند الممارسة غالبا ما يختلطان . ولما كان كلا الفرعين من السحر يفترضان أن الأشياء تؤثر فى بعضها عن بعد من خلال مشاركة خفية ، فإن التأثير ينتقل من أحدها الى الآخر بوسيلة يمكن أن نتصورها على أنها نوع من الأثير غير المرئى .

ولعل أكثر الأمثلة شيوعا لتطبيق « مبدأ المشابهة » هى المحاولات التى قام بها كثير من الناس فى عصور عديدة لايذاء أحد أعدائهم أو تدميره عن طريق ايذاء صورة له أو تدميرها معتقدين بحدوث نفس الأثر لصاحبها . وتتضمن المعتقدات الشعبية أن رسم صورة الشخص فى الرمال أو الرماد أو الطين ، أو اعتبار أى شىء كأنه جسمه ثم وخزه بعصا حادة ، أو احداث أى نوع آخر من الأذى به يعكس تأثيرا مماثلا على الشخص الذى جرى تمثيله .

واذا كان السحر عن طريق المحاكاة أو « التمثيلى » يستخدم فى الأغراض الشريرة لاخراج الناس الممقوتين من الحياة باحراق الدمى التى تمثلهم ، فانه يستخدم أيضا

ـ ولو أن ذلك أكثر ندرة ـ لمساعدة آخرين على المجيء الى الحياة ، وبعبارة أخرى فقد استخدم لتيسير عملية الولادة ، وحصول المرأة العاقر على الحمل ٠

ومن استخداماته الخيرة أيضا ابراء المرض أو منعه ، كذلك فانه يلعب دورا هاما فى ممارسات القناص وصياد السمك لتحقيق وفرة الصيد ، ويستخدم أيضا لحمل الأشجار والنباتات على الأثمار أو النمو فى الموسم الملائم ٠

وينتهى أخيرا الى اعتبار « التابو » أو المحظورات تطبيقا سلبيا للسحر العملى ، فبينما نجد أن السحر الايجابى يأمر بفعل كذا وكذا حتى يتحقق كذا وكذا ، فان السحر السلبى أو « الثابو » ينهى عن فعل كذا خشية أن يحدث كذا ٠ وغرض السحر الايجابى هو أن ينتج الشيء المرغوب فيه ، أما السحر السلبى « الثابو » فغرضه أن يتجنب غير المرغوب فيه ٠

ولكن النتيجة فى الحالتين يفترض أنها تنشأ وفقا لقوانين التشابه والاتصال ٠ والمحظورات « الثابو » التى يراعيها القناصة وصيادو السمك وغيرهم تندرج تحت عنوان السحر التعاطفى، فانها ليست سوى تطبيقات معينة لهذه النظرية العامة ٠

السحر بطريق العدوى :

أكثر الأمثلة شيوعا لهذا الفرع من السحر هو التعاطف السحرى الذى يفترض وجوده بين الانسان وبين أى جزء يقتطع منه مثل شعره أو أظافره ، وعلى هذا فإن كل من يستحوذ على شعر انسان أو أظافره يستطيع أن يفرض مشيئته على ذلك الشخص على أية مسافة .

وقد يفترض وجود التعاطف السحرى بين الانسان والعرق الذى ينضح من جسمه وتمتصه ملابسه . بل ان الأمر يتعدى الى ممارسة السحر على الانسان من خلال ما يتركه جسمه من انطباعات على الأرض ، ويعتقد بأنه بجرح أثر القدم فان الجرح ينتقل الى القدم الذى صنعت هذا الأثر .

تطور الساحر :

اذا أخذنا الموضوع من زاوية أخرى نقول بوجود نوعين من السحر هما :

السحر الخاص الذى تمارس طقوسه لمنفعة أفراد أو للاضرار بهم . ولكن فى المجتمع البدائى نجد الى جانب هذا الشكل الخاص من السحر شكلا عاما هو السحر الذى يمارس لمنفعة الجماعة بأكملها .

وحيثما تجرى شعائر هذا النوع من أجل المنفعة العامة فان الساحر تتوقف صفته كمجرد ساحر خاص ، ويصبح — الى حد ما — موظفا عاما • ونمو مثل هذه الطبقة من الموظفين يمثل أهمية قصوى في تطور المجتمع سياسيا ودينيا ، لأنه عندما يفترض بأن رخاء القبيلة يعتمد على أداء الطقوس السحرية ، فان الساحر يرتقى الى مركز أعظم تأثيرا وشهرة ، وسرعان ما يبلغ مرتبة الزعيم أو الملك ويمارس سلطاته •

والنتيجة العامة هى أنه فى هذه المرحلة من التطور الاجتماعى تميل السلطة العليا الى الوقوع فى قبضة أكثر الرجال ذكاء وأفسدهم ضميرا • وعلى ذلك فانه لما كانت مهنة السحر « العام » هى احدى الطرق التى يصل بها أقدر الرجال الى السلطة العليا ، فقد أعانته حيويته وذكاؤه على أحداث تغييرات كبيرة فى وقت قصير مما أسهم بالتالى فى تحرير البشرية من عبودية التقاليد •

ومن ناحية أخرى فاننا عندما نتذكر بأن السحر قد مهد الطريق للعلم نضطر الى الاعتراف بأن « الفن الأسود » اذا كان قد صنع شرورا كثيرة ، فقد كان أيضا مصدر كثير من الخير •

ان التشابه بين مفهوم كل من السحر والعلم يجىء من افتراض كليهما أن تعاقب الأحداث منتظم تماما ومؤكد

بحكم قوانين لا تتغير ، غير أن العيب المميت في السحر هو في تصوره الخاطيء كلية لطبيعة القوانين التي تحكم هذا التعاقب ·

السحر والدين :

يبدأ فريزر ، لبيان العلاقة بين السحر والدين ، بمحاولة تحديد مفهوم الدين نظرا لصعوبة الاتفاق حول طبيعته · ويرى أن من الضروري البدء بهذا السؤال : ماذا نعني بكلمة الدين ؟ ويجيب بأنه يفهم الدين على أنه استمالة أو مصالحة القوى الأسمى من الانسان التي يعتقد أنها توجه وتسيطر على مجرى الطبيعة والحياة الانسانية ·

وبهذا التعريف فان الدين يتألف من عنصرين : نظري ، وعملي ، أعني : اعتقاد في القوى الأسمى من الانسان ، ومحاولة استمالتها وارضائها ·

وهكذا ، فانه بقدر اعتقاد الدين في أن العالم توجهه قوى واعية يمكن تحويلها عن أغراضها بطريق الاقناع ، فانه يتعارض تعارضا أساسيا مع السحر ، وكذلك مع العلم اللذين يسلمان بأن سير الطبيعة لا تحكمه عواطف أو أهواء كائنات فردية ، وانما تحكمه قوانين ثابتة تسير بطريقة ميكانيسكية ، وهو اعتقاد ضمني في السحر ، وصريح في العلم ·

وهذا الصراع الجذرى من حيث المبدأ بين السحر والدين يكفى لتفسير العداء الحاد الذى يكنه رجل الدين للساحر على مر العصور ، وان كان التعارض لم يظهر الا متأخرا فى تاريخ الدين ·

ففى المراحل المبكرة كانت وظائف الكاهن والساحر مرتبطة غالبا ·

وكان الانسان لتحقيق غرضه يتودد الى الآلهة أو الأرواح بالأدعية والتضحية ، وكان فى الوقت نفسه يستعين بالشعائر والتعاويذ التى كان يأمل أن تحقق النتيجة المرجوة بنفسها بدون مساعدة الاله أو الشيطان · وبايجاز فقد كان يقوم بأداء الطقوس الدينية والسحرية فى وقت واحد ·

وقد ظل مثل هذا الاختلاط بين السحر والدين حيا بين شعوب بلغت أرقى مستويات الثقافة كالهند ومصر القديمة ، ولم يخب تماما بين القرويين الأوربيين فى الوقت الحاضر ·

السيطرة على الطقوس بالسحر :

لقد سبقت الاشارة الى وجود نمطين مختلفين لما يمكن أن يسمى بالاله الانسان ، هما رجل الدين والساحر ،

والأول منهما نجده يعلن عن قدرته الفائقة ومعرفتـه عن طريق صنع المعجزات والتنبؤ بالغيب ، بينما الثانى هو مجرد انسان يمتلك درجة عالية من القدرة غير العادية ، وهو يستمد هذه القوة الخارقة من نوع من التعاطف المادى مع الطبيعة ٠

كذلك فقد سبقت الاشارة الى أن الساحر « العام » يحتل مكانة سامية قد تصل به لأن يحتل مرتبة الزعيـم أو الملك ، وعلى هذا فان البحث فى هذا الصدد يؤدى الى نوع من التفهـم للملكيات المبكرة ، حيث يبدو أنـه فى المجتمعات الهمجية والمتبربرة فان كثيرا من الزعماء والملوك مدينون بسلطانهم الى حد كبير الى شهرتهم كسحرة ٠

ومن بين ألوان المنفعة العامة التى قد يستخدم السحر لضمانها أو للتكفل بها ٠ وأعظمها أهمية هو توفير الطعام بقدر كاف ٠

ولقد خطت المجتمعات البدائيـة الى الأمام خطـوة كبيرة حـين تأسست طبقة خاصـة من السـحرة اختيرت لتستخدم مهارتها من أجل مصلحة الجماعة سواء بتوجيه هذه المهـارة لابراء الأمراض ، أو للتنبؤ بالمسـتقبل ، أو لتنظيم الطقس ، أو لغير ذلك من الأغراض ذات النفع العـام ٠

ولقد أصبحت واجباتهم التفتيش عن أساليب الطبيعة الخفية ، وأن يعرفوا أكثر مما يعرفه قرناؤهم للتعرف على كل شيء يمكن أن يؤيد الانسان في صراعه القاسي مع حياته .

ومن بين الأشياء الرئيسية التى أخذ الساحر العام على عاتقه أن يقوم بها لمصلحة القبيلة هو السيطرة على الطقس ، وبصفة خاصة أن يضمن سقوطا ملائما للمطر . فالماء أساس الحياة ، وفي معظم الأقطار فان توفيره يعتمد على الأمطار ، وبدونها يذبل النبات وتهلك الحيوانات والناس . ومن ثم فان أعظم الشخصيات أهمية في المجتمعات البدائية هو صانع المطر ، وغالبا ما وجدت طائفة خاصة من السحرة هدفها تنظيم المطر ، وكانت هنالك ممارسات عديدة وطقوس متنوعة لانزال المطر ووقفه تبعا للحاجة الى ذلك .

وفي بعض المناطق مثلا عندما تلح الحاجة الى المطر فان السحرة كانوا يصومون ويأخذون في الرقص وقد وضعوا في أفواههم أنابيب مملوءة بالماء .

وكما أن الساحر كان يعتقد بأنه يستطيع صنع المطر ، فانه يتصور أن بقدرته أن يجعل الشمس تشرق ، ويستطيع أيضا أن يسرع بغروبها أو يصده . وكان

الملك في مصر القديمة باعتباره ممثل الشمس يسير فى جلال حول أحد المعابد ليضمن للشمس أن تتم رحلتها اليومية دون أن تعوقها كارثة من الكوارث ٠

ومثل ذلك يقال بالنسبة للقمر ، فبعض الناس كانوا يتصورون أن بقدرتهم أن يزيدوا من سرعة القمر عندما يبطيء ، باجراء ممارسات معينة مثل القاء الحجارة والحراب تجاهه ٠ ومرة أخرى فان الرجل البدائي يعتقد بأنه يستطيع أن يجعل الرياح تهب أو تسكن باجراء طقوس معينة ٠

السحرة كملوك :

قد تقنعنا الأدلة السابقة بأن السحر فى كثير من الأقطار وبين كثير من الأجناس قد ادعى السيطرة على قوى الطبيعة لمصلحة الانسان ٠

فاذا كان ذلك صحيحا كما يقول المؤلف ، فان الممارسين لهذا الفن لابد وأنهم بالضرورة شخصيات بالغة الأهمية والنفوذ فى أى مجتمع يضع ثقته فى ادعاءاتهم المسرفة ٠ وليس مما يدعو الى الدهشة اذا كان بعضهم ، بفضل الشهرة التى ينعم بها ، والمهابة التى تشع منه لابد وان يصل الى أعلى مراتب السلطة فوق أقرانه السذج ٠

وفى الحقيقة فان السحرة يبدو أنهم غالبا قد تطوروا الى زعماء وملوك ، ومن أمثلة ذلك سكان استراليا الأصليون الذين لا يسانسون بزعماء ولا ملوك ، وانما يحكمون بطريقة « اليجراكية » بواسطة رجال من المسنين ذوى النفوذ يجتمعون فى مجلس ويصرفون شئون قبيلتهم ، فاذا كان ولابد من وضع كلمة تدل على مثل هذه الحكومة فربما نسميها « حكومة الشيوخ Gerontocracy »

وفى استراليا الوسطى نجد أن رؤساء القبيلة هم سحرة عموميون ، ومن ثم فان أهم واجباتهم هى القيام بمسئولية المخزن المقدس الذى تحفظ فيه الحجارة والعصى المقدسة التى يفترض ان أرواح القبيلة – من الأحياء والموتى – ترتبط بها على نحو ما ·

وبينما يؤدى هؤلاء الرؤساء ما يوصف بأنه واجبات مدنية مثل توقيع العقاب على من يخل بالعادات القبلية فان وظائفهم الرئيسية هى وظائف مقدسة أو سحرية · وقد ذكر « فريزر » أمثلة عديدة من أقطار مختلفة تبرهن على أن نفوذ الرؤساء مستمد من الاعتقاد فى قدراتهم السحرية كالاتصال بالأرواح أو انزال المطر أو التطبيب · كما نجد فى أفريقيا أن الملك غالبا يتطور عن الساحر العام وبصفة خاصة عن صانع المطر ·

وفى أقطار أخرى كثيرة نجد أن الملوك كان ينتظر منهم أن ينظموا دورة الطبيعة لمنفعة شعوبهم وأنهم كانوا يعاقبون اذا ما فشلوا فى تحقيق ذلك .

ويبدو أن الاعتقاد في أن الملوك يمتلكون قوى سحرية أو خارقة تعطيهم القدرة على اخصاب الأرض ومنح منافع أخرى لرعاياهم كان اعتقادا يشترك فيه أسلاف جميع السلالات الآرية من الهند الى ايرلندا ، وأنه ترك آثارا واضحة في بريطانيا حتى الأزمنة الحديثة .

وبمرور الوقت ازداد زيف السحر وضوحا في الأذهان النابهة ، وببطء حل الدين محله . وبتعبير آخر فان الساحر أخذ يخلي مكانه لرجل الدين الذى نجده حين يتبدد محاولة السيطرة المباشرة على مجرى الطبيعة لمصلحة الانسان يسعى لبلوغ الغاية نفسها بطريقة غير مباشرة ، وذلك بالتوسل الى الآلهة كى تحقق له ما لم يعد يتصور أن باستطاعته تحقيقه بنفسه .

ومن ثم فان الملك ، الذى بدأ كساحر يتجه بالتدريج نحو الممارسات الكهنوتية من صلوات وقرابين بدلا من السحر .

وبينما لم يتحقق تماما الفصل بين ما هو بشرى وما هو الهى ، فقد كان يتصور غالبا بأن الانسان نفسه

قد يصل الى مرتبة الالوهية ليس فقط بعد موته بل وفى خلال حياته عن طريق سيطرة أحد الأرواح العظيمة على كيانه سيطرة مؤقتة أو دائمة ٠

تجسد الآلهة فى بشر :

فى المجتمع الذى يفترض فيه أن كل انسان قد منح نوعا من القوى التى يمكن أن نسميها قوى خارقة فان من الواضح أن التمييز بين الآلهة والبشر يكون غائما الى حد ما ٠ والتصور بأن الآلهة هى كائنات بشرية متفوقة منحت قوى لا تقارن بما يمتلكه الانسان لا من حيث الدرجة ولا النوع ، هذا التصور قد تطور ببطء مع مجرى التاريخ ٠ وترجع فكرة الاله الانسان ، أو الانسان الذى منح قوى الهية أو خارقة ترجع أساسا الى تلك الحقبة المبكرة من التاريخ الدينى حيث كان الآلهة والبشر ما يزال ينظر اليهم على أنهم كائنات من نفس المرتبة تقريبا ، وقبل أن تفصل بينهم هوة سحيقة ازدادت اتساعا بعد ذلك ٠

وهنالك امثلة عديدة عن آلهة اعتقد عبدتهم بأنهم متجسدون فى كائنات بشرية حية من الرجال أو النساء ٠ والأشخاص الذين يعتقد بأن الاله يتجسد فيهم ليسوا دائما ملوكا أو من سلالة الملوك ٠ فالتجسد المفترض قد يحدث حتى فى أناس من مستوى متواضع ٠ وتختلف

النظرة الى هؤلاء البشر المؤلهين ، فبعضهم قد منح درجة عالية من القوة الخارقة تجعله فى مرتبة تشبه مرتبة الآلهة ، ويتقبل صلوات التجلة والقرابين • وأحيانا تنحصر وظائفهم فى مهام خارقة أو روحية فحسب ، وأحيانا يمارسون بالاضافة الى ذلك قوة سياسية عليا ، وفى هذه الحالة الأخيرة فهم ملوك وآلهة فى الوقت نفسه ، ويكون نظام الحكم ثيوقراطيا (حكومة دينية) •

وفى بعض الأحيان عندما يموت الانسان المؤله فان الروح الالهية تنتقل الى انسان آخر كما نجد فى البوذية •

ملوك عناصر معينة من الطبيعة :

فى هذا الفصل نلتقى بمحاولة تشكيل صورة عامة بغرض توضيح الفكرة السابقة عن ملوك الغابة فى نيمى ووضعها فى مكان أكثر تحديدا • ولكى نعبر منها الى دراسة مجالات جديدة •

وقد برهنت دراستنا السابقة فى رأى « فريزر » على أن الاتحاد بين الوظائف المقدسة واللقب الملكى الذى مر بنا عند ملك الغابة فى نيمى ، والملك الضحية فى روما ، والحاكم الذى كان يدعى ملكا فى أثينا قد حدث كثيرا خارج حدود الأزمنة الكلاسيكية ، وهو سمة مشتركة فى المجتمعات فى جميع الأطوار من التبربر الى الحضارة •

وفوق ذلك فانه يبدو أن الكاهن الملك هو فى الغالب ملك ـ ليس فقط بالاسم بل فى الواقع ـ يمسك بالصولجان ويسيطر على الهيئة الدينية ٠

كل ذلك يعزز الفكرة المأثورة عن أصل الملوك الكهنة أو الحكام الملقبين بالملوك فى الجمهوريات اليونانية والايطالية قديما ٠

وقد يحق لنا أن نتساءل : أليس من المحتمل أن نشأة ملك الغابة كانت مثل نشأة ملوك روما وآثينا الذين أشرنا اليهم !

ولكن « فريزر » يجيب عن هذا السؤال بالنفي لسببين يستخلصهما من مقر كاهن نيمى ، ومن لقبه : ملك الغابة ٠ فلو أن أسلافه كانوا ملوكا بالمعنى المألوف لهذه الكلمة ، فلابد اذن أن يكون له مقر فى المدينة التى سلب منه فيه الصولجان مثل الملوك الضحايا فى أثينا وروما ، وهذه المدينة لابد وأن تكون أريشيا ، غير أن أريشيا تبعد ثلاثة أميال عن غابته المقدسة على ضفة البحيرة ، فاذا كان قد تولى الملك فان ذلك لم يكن فى مدينة بل فى الغابة ٠ ومرة أخرى فان لقبه : ملك الغابة يجعل من الصعب علينا أن نفترض بأنه كان ذات يوم ملكا بالمعنى المعروف

والاحتمال الأكبر أنــه ملكا للطبيعة ولجانب خاص من الطبيعة أى الغابة التى استمد منها لقبه • وأخيرا فان هنالك أمثلة كثيرة لمن يمــكن تسميتهم ملوك جوانب من الطبيعة ، أى الأشخاص الذين يفترض أنهم يحكمون على عناصر معينة من الطبيعة ، والذين يمثلون نظائر أقرب الى ملك الغابة هذا أكثر من قربهم الى الملوك المؤلهين الذين سبق أن اعتبرنا أن سيطرتهــم على الطبيعة سيطرة عامة أكثر منها خاصة • ومن هؤلاء ملوك العاصفة ، وملوك المطر فى الكونغو وأعالى النيل ، وملك النار ، وملك الماء فى غابات كمبوديا •

★★★

« عبادة الأشجار »

وهذا الموضــوع هو أحـــد الموضوعــات الرئيسية المتشعبة ، ويستهله فريزر بالحــديث عن أرواح الشجر وتصورها وآثارها فى العادات القروية فى أوربا •

فلقد لعبت عبــادة الأشجار دورا هاما فى التاريــخ الدينى للجنس الآرى فى أوربا حيث كانت الغابات تغطى مساحات شاسعة من أوربا فى فجر التاريخ • والبحث فى تاريخ الكلمة التيوتونية الدالة على « معبد » تدل على أن

أقدم المعابد عند الجرمان كانت هى الغابـات الطبيعية ،
كذلك فان عبادة شجر البلوط كانت شائعة عند الكلتيين ،
كما أن الكلمة القديمة التى تدل على مكان العبادة عندهم
يبدو أنها مطابقـة فى الأصـل والمعنى للكلمة اللاتينيـة
والتى ما تزال باقية متوارثة فى اسم « نيمى Nemi »
نيموس nemus التى تعنى غابة صغيرة أو فرجة فى غابة

ولقد كانت الغابات المقدسة مألوفة عند قدماء الجرمان،
وكذلك فان عبادة الأشـجار قد انقرضت بصـعوبة لدى
ذرياتهم فى الوقت الحـاضر ، وأيضـا فـان الوثنيين من
الشعوب السلافية قد عبدوا الأشجار والغابات •

ولكن من الضرورى أن نـدرس ببعض التفصيـل
البواعث التى قامت عليها عبادة الأشجار والنبـات •
فبالنسبة للرجل البدائى فان العالم بصفة عامة حى ذو
روح ، وليست الأشجار والنبات مستثناة من هذه القاعدة،
ولذلك فهو يعاملها طبقـا لهذا الاعتقاد ، وما دامت ذات
روح مثل روحه فانها بالضرورة مفعمة بالاحساس والشعور،
ولذلك فان أنواعا من الأشجار كان يحرم قطعها • ومن
ناحية أخرى فان هذا الاعتقاد نحو الأشجار والنبات قد
أدى بالطبع الى معاملتها على أن منها ذكرا وأنثى يمكن أن
يتزاوجا بالمعنى الحقيقى للكلمـة وليس بالمعنى الشعرى
ولا المجازى •

وفى بعض الأحيان كان يعتقد بأن أرواح الموتى حية فى الأشجار ، بمعنى أن هؤلاء الأسلاف قد تحولوا أشجارا •

ولقد حدث تقدم هام فى الفكر الدينى حين تعدلت فكرة أرواح الأشجار ، فبدلا من اعتبار كل شجرة كائنا ذا حياة وشعور ، أصبح الانسان ينظر اليها كشئ جامد يقطنها كائن خارق لزمن يطول أو يقصر ، ويستطيع أن ينتقل بحرية من شجرة الى أخرى ، وهو بهذه الطريقة يستمتع بحق معين فى التملك أو السيادة على الأشجار ويتوقف عن أن يكون روحا للشجرة ليصبح الها للغابة •

وبعد ذلك نجده يشرع فى تغيير هيئته متخذا هيئة انسان بفضل الاتجاه العام ، فى التفكير البدائى المبكر ، الى الباس جميع الكائنات الروحية المجردة شكلا بشريا مكثفا

ولكن هذا التغيير فى الشكل لم يؤثر على الصفات الأساسية لروح الشجرة ، فاستمر الاعتقاد فى قدرتها ككائن حى على انزال المطر ، وجعل الشمس تشرق ، والنبات ينمو ، والقطعان تتكاثر ، وتيسير الولادة ، ومباركة الأمهات عند الوضع • وكذلك فقد نسبت هذه

القدرات ذاتها الى آلهة الأشجار التى جرى التصور على تجسدها بالفعل فى أناس أحياء ·

بقايا عبادة الأشجار فى أوربا فى العصر الحديث :

من العرض السابق للصفات الحية التى شاعت نسبتها الى أرواح الأشجار يجعل من اليسير أن نفهم لماذا أن بعض العادات مثل « شجرة مايو » ، أو « عمود مايو » ظلت واسعة الانتشار فى الاحتفالات الشعبية عند القرويين الأوربيين · وكذلك الاعتقاد السائد بأن الصيف هو روح النبات وقد عادت مرة أخرى منتعشة فى الربيع ·

وفى احتفالات الربيع هذه فان روح النبات تمثله غالبا شجرة مايو والى جانب ذلك يمثلها رجل يرتدى أوراقا خضراء أو زهورا ، أو فتاة تتزين بنفس الطريقة · وأحيانا تمثل روح النبات بملك أو ملكة ، أو برجل وامرأة ، أو بعريس وعروس · ويمكننا أن نستدل من أعياد الربيع والصيف فى أوربا بأن أسلافنا البدائيين قد شخصوا قوى النبات فى ذكر وأنثى ، وحاولوا عن طريق السحر التمثيلى حث الأشجار والنبات على النمو بتمثيل زواج الآلهة فى شخص ملك وملكة مايو أو ما يشابههما ، ولم يكن هذا التمثيل مجرد مسرحيات رمزية ، أو تمثيليات ريفية غرضها تسلية النظارة أو تثقيفهم ، ولكنها كانت

تعاويذ يقصد بها حث الأشـجار كى تنمو ، والحشائش لتطول ، والأزهار لتتفتح

ونفس الوسائل التى اتبعت لحث نمو الغلات كان من الطبيعى أن تستخدم لضمان اثمار الشجر • ولقد ساد الاعتقاد بين بعض قبائل أفريقيا وفى أجزاء مختلفة من أوربا بأن العلاقة بين الجنسين يمكن أن تستخدم للاسراع بنمو النبات •

الزواج المقدس :

تتكاثر النباتات ـ طبقا للاعتقاد الواسع الانتشار ـ بطريق الاتحاد بين عناصر التذكير والتأنيث ، ووفقا لمبدأ السحر عن طريق المحاكاة فان هذا التكاثر يفترض أنه يستحث بالزواج الحقيقى أو الهـزلى بين رجـل وامرأة يمثلان روح النبات •

ولقد لعبت مثل هذه التمثيليات السحرية دورا هاما فى الاحتفالات الشعبية الأوربية • ومن الواضح أنها موروثة من عصور سحيقة •

ولقد رأينا فى الفصـل الأول ما يبرر الاعتقـاد بأن الكاهن الذى يحمل لقب ملك الغـابة فى نيمى قد اقترن

بربة الغابة « ديانا » نفســـها التى لم تكن مجرد الهـة للأشـجار ، بل يظهر انها تطـورت مثل « أرثميس » الى تجسيد للخصب فى الطبيعة عند الحيوان والنبات • وعلى ذلك فمن الممكن وصف « ديانا » بأنها ربة للطبيعة بعامة ، وللخصب بصفة خاصة ، وأن قرينها كان هو « فيربس » الذى تمثل أو بالأحرى تجسد فى ملك الغابة فى نيمى وهنالك أمثلة كثيرة لزواج الآلهة فى بابل وفى طيبة مصر، وأثينـا ، ومنها زواج « زيوس » وهـيرا • وأن مثل هذه العادة الواسعة الانتشار بين الأمم المتحضرة القديمة ، والتى تتصل بزواج الآلهة سواء من تماثيل أو من كائنات بشرية قد ارتكزت على أفكار موروثة من الأسلاف البدائيين لهذه الأمم •

ملوك روما وألبـا :

مما سبق يمكن أن نستنتج بأن عادة الزواج المقدس لقوى النبات والماء كان يحتفل بها كثير من الشعوب بغرض الحث على خطوبة الأرض ، وأنه فى مثل هذه الطقوس كان يقوم غالبا بدور العروس أو العريس الالهى امرأة أو رجل• كذلك فان الدلائل تقود الى القول بأن زواجـا مثل زواج ملك وملكة مايو كان يحتفل به كل عام فى نيمى بين ملك الغابة الفانى وملكة الغابة الخالدة « ديانا » ••

وفيما يتصل بملك روما فانه كان يمثل جوبتير اله السماء والرعد وشجر البلوط ولم يكن أقل من جوبتير في صفاته ، أما ملوك ألبا فقد كانوا من نسل المستوطنين الذين بنوا مدينة روما • وكانت أسرة هؤلاء الملوك تحمل اسم الغابات ، ولذلك فان اكليلا من أوراق شجر البلوط يبدو أنه كان جزءا من شعارها كما كان جزءا من شعار خلفائهم ملوك روما • وفي كلتا الحالتين فقد كان ذلك سمة تميز الملك باعتباره ممثلا بشريا لاله البلوط ، وعلى ذلك فاذا كان ملوك ألبا وروما يحاكون جوبتير باعتباره الها لشجر البلوط ، فانه يبدو أيضا أنهم كانوا يحاكونه في صفته كاله للطقس وذلك بالتظاهر بصنع الرعد والمطر •

عبادة شجر البلوط :

ويبدو أن عبادة شجر البلوط أو اله البلوط قد اشتركت فيها جميع فروع السلالة الآرية في أوربا ولقد كانت هناك علاقة بين طقوس النار التي كانت توقد في معبد فستا وبين خشب البلوط الذي تغذى به هذه الشعلة • والنتيجة التي يريد منا فريزر أن نبلغها في ختام هذا الفصل هو الاحتمال بأن الشجرة التي كان من واجبات ملك الغابة في نيمي أن يحرسها حتى الموت كانت شجرة بلوط • • ووفقا لفرجيل فان الغصن الذهبي الذي انتزعه « اينياس » كان من شجرة بلوط دائمة الاخضرار •

وسوف يعود بنا المؤلف فى نهاية الكتاب لمناقشة هذه القضية مرة أخرى • أما الآن فان الحديث سوف ينتقل الى زاوية جديدة تدور حول موضوع رئيسى آخر هو « التابو » أو المحظورات بصورها وأنواعها المختلفة •

★★★

« أعباء السلطة »

لقد سبق أن أشرنا الى الاعتقاد الشائع فى بعض مراحل التطور للمجتمع البدائى ، وهو أن الملك أو الكاهن قد وهب قوى خارقة ، أو أنه تجسيد لأحد الآلهة • ووفقا لهذا الاعتقاد فانه يفترض بأن مجرى الطبيعة تحت سيطرته على نحو ما ، وأنه لذلك يعتبر مسئولا عن سوء الطقس ، وقلة المحصول وغير ذلك من الكوارث الذى يعتقد أنها تتم بمشيئته ، والتى كان يعاقب عليها بوضعه فى القيود وبالجلد ، فاذا استمر فى عناده عاقبه رعاياه بالاعدام والموت

ولما كان شخصه يعتبر مركز الكون فان أية حركة تصدر عنه قد تؤدى الى تعكير بعض عناصر الطبيعة ، ومن ثم فقد كان من الواجب توخى الحرص الشديد منه ، وعليه • ومن ذلك نشأت محظورات معينة بالنسبة له •

فقد كان يفرض على امبراطور اليابان مثلا في القديم أن يجلس على عرشه ساعات طويلة كل صباح وعلى مفرقة التاج دون أن تبدر منه أية حركة اعتقادا بأن هذه الجلسة تحقق السلام والهدوء لامبراطوريته · كذلك فقد كان لا يسمح للشمس أو القمر أن تسقط أشعتهما على رأسه ·

وشبيه بهذه المحظورات كان مرعبا بالنسبة للملوك الكهنة أو المؤلهين في مناطق مختلفة بأفريقيا ، وللملوك ايرلندا قديما الذين كانوا يخضعون لبعض المحظورات الغريبة أو التابو حفاظا على رخاء الناس والبلاد ·

وقد أدت أعباء السلطة الثقيلة هذه على الملوك والكهنة الى الفصل بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية نتيجة لرفض كثير منهم تولى هذه المناصب ، وقد اقتضى الأمر أحيانا ارغام هؤلاء الممتنعين ·

هلاك الروح :

لقد تعرفنا من هذه الأمثلة على بعض « المحظورات » التى تقيد منصب الملك المقدس أو الكاهن ، والتى كان غرضها الأساسى هو الحفاظ على حياة الرجل المؤله لمصلحة رعيته

ولكن ، كيف تؤدى مراعاة هذه المحظورات الى

التأثير على حياته ؟ وما هى الأخطار التى تهدد حياة الملك واتجاه هذه المحظورات لتوقيها ؟

لقد كان اعتقاد الرجل البدائى بأن حيوية الانسان والحيوان تكمن فى **حضور** الروح ، وكانت هجعة النوم أو الموت تفسر بغياب الروح ، والنوم **غياب** مؤقت للروح ، والموت غياب دائم ·

واذن فان الطريقة المتبعة لتوقى الموت تكون أما بمنع الروح من مفارقة الجسد أو ضمان عودتها ثانية فى حالة رحيلها ·

وقد اتخذت الاحتياطات التى اصطنعها البدائيون ، لتوقى هذه النهاية ، شكل محظورات معينة لضمان بقاء الروح أو عودتها ·

ولما كان الاعتقاد أحيانا بأن الروح لا تفارق الجسد عن طواعية فى سائر الأحوال ، اذ انها ربما تنتزع منه بواسطة الأشباح أو الشياطين أو السحرة ، لذلك فان بعض المحظورات تفرض فى حالات معينة لتوقى ذلك ، فبعض القبائل البدائية كانت تعمد الى تقييد الأطفال ووضعهم فى مكان معين من المنزل أثناء مرور الجنازات خوفا من أن تفر أرواحهم الى جثة الميت أثناء عبورها ·

كذلك فقد لعبت التعاويـذ دورا هاما فى استعادة الأرواح ·

على أن اعتقـاد الرجل البـدائى لم يقتصر على هذا الجانب وهو روحـه ، بل انه كان يعتبر ظله أو انعكاسه تماما مثل روحه أو على أى حال كان يعتبره جوهريا من نفسه ، يمثل مصدرا للخطر يتهدده ، فلو أن أحدا داس ظله أو طعنه فانه سوف يشعر بالأذى كما لو كان ذلك قد وقع لشخصه · ولو حدث أن انفصل عنه كلية ـ تبعا لاعتقاده بأن ذلك ممكن ـ فانه سوف يموت

وعلى هذا فان طائفة من المحظورات قد انبثقت عن مثل هذا الاعتقاد ، ومن ثم فقد اتخذ الرجل البدائى قاعدة له أن يتحاشى ظل أشخاص معينين يعتبرون لأسباب كثيرة مصادر للتأثير الخطير ·

الأفعال المحظورة :

ولما كان الغرض من المحظورات الملكية هو ابعاد الملك عن جميع مصادر الخطر ، فان آثارها العامة تظهر فى الزام الملك بأن يحيا فى حالة عزلة تامة أو جزئية ، بحسب عدد القواعد التى عليه أن يراعيها ومدى شدتها ·

ولما كان السحر هو أكثر مصادر الخطر اثارة لرعب الرجل البدائى فانه يتوجس من جميع الغرباء خشية أن

يكونوا ممن يمارسون هذا الفن الأسود ، ولاتقاء اذى التأثيرات الضارة التي يسببها الغرباء فقد نشأت قواعد مبدئية نابعة من حذر الرجل البدائى ، ومن ثم فانه قبل السماح للغرباء بأن يجوسوا خلال احدى المناطق بحرية ويختلطوا بالسكان فهناك شعائر معينة يؤديها السكان الأصليون غرضها فى الغالب هو تجريد هؤلاء الغرباء من قوتهم السحرية أو صد التأثيرات المؤذية التى يعتقد أنها تنتقم منهم ٠

من ذلك اقامة بعض الشعائر التطهيرية مثل نثر الماء أو الرمل فى جميع الجهات ، ومنها أيضا الزام الغرباء بالسير بين صفين من النيران اعتقادا بأن النار تبطل السحر ٠

الطعام والشراب :

فى تصور الرجل البدائى أن عملية الطعام والشراب يصاحبها خطر من نوع معين ، اذ أن الروح قد تخرج من الفم أثناء ذلك ، أو تنتزع بواسطة فنون السحر التى يستخدمها عدو من الحاضرين ٠ لذلك فان الناس كانوا يتخذون الحيطة فى مثل هذه الأحوال ، أما بالنسبة للملوك فقد كانت تتخذ احتياطات غير عادية بالطبع ٠

ومنها تحريم رؤية الملك وهو يأكل أو يشرب ، وفشل

من يراه ـ ان تصادف حدوث ذلك ـ انسانا كان أو حيوانا ٠ اعتقادا بأن الملك نفسه سوف يموت اذا ما رآه أحد وهو يأكل أو يشرب ٠

وفي بعض الأحيان يكون الغرض من المحظورات في مثل هذه الأحوال هو اعاقة التأثيرات الشريرة عن دخول الجسم أكثر من كونه احتياطا لمنع الروح من الهرب ٠ ونفس الباعث على ابعاد الأرواح الشريرة ربما يفسر عادة بعض السلاطين الأفريقيين في الانتقاب ٠ ويتصل بذلك تحريم مغادرة البيت ، فبعض الملوك يحظر عليهم مغادرة قصورهم ، فاذا سمح لهم بذلك فانه يحرم على رعيتهم رؤيتهم خارج القصر ٠

ومن المحظورات المرعية بالنسبة للطعام تحريم ترك الفضلات ، ويرتبط هذا التابو بالخوف من السحر ، اعتقادا في الارتباط بين الطعام الذى دخل المعدة والفضلات المتروكة أن ينتقل تأثير السحر منها الى الآكل نفسه ٠

ولهذا السبب فانه يحرم لمس بقية طعام الملك المؤلة أو أكله اعتقادا بأن من يفعل ذلك فانه ميت لا محالة ٠

وهذا الأمر يتصل بالحظر بالنسبة لبعض الأشخاص فهؤلاء الملوك المؤلهون كما يحرم أكل بقية طعامهم فانه يحرم أيضا على أى انسان آخر أن يرتدى ملابسهم دون

اذن منهم . ذلك أن الشخص المؤله يعتبر مصدرا للخطر كما أنه مصدر للبركة فلا يقتصر الأمر على حراسته بل يجب أيضا الاحتراس منه .

وكما يسرى حظر استخدام الأشياء الخاصة بالشخص المقدس ، فانه يسرى أيضا بالنسبة لما يمكن تسميته بالنجس . فمثلما تقتل ملابس الشخص المقدس من يتناولها فان الأمر كذلك بالنسبة للملابس التى تلمسها امرأة فى حالة الطمث .

ومثل هذه المحظورات تفرض على المرأة فى حالة الوضع وللأسباب نفسها ، ففى مثل هذه الأوقات يفترض أن النساء فى ظروف خطرة وأنهن قد يعدين أى شخص أو أى شىء يلمسنه .

ومن الأشخاص الذين يخضعون للحظر المحاربون قبل النصر وبعده ، فيتم وضعهم فى نفس حالة العزل أو الحجر الروحى التى يضع فيها الرجل البدائى آلهته البشرية أو الشخصيات الهامة .

كذلك فهناك أنواع من الخطر معينة يجب أن يراعيها صيادو الحيوانات والأسماك وهم يخضعون أيضا لبعض الشعائر التطهيرية كالمحاربين . ومرد ذلك هو الخوف من أرواح الحيوانات أو الطيور أو الأسماك التى قتلها الصياد أو سوف يقتلها .

معني التــابو :

لقد وصفنــا هذه الطبقات التى تخضــع للحظر فى المجتمعات البدائية بأن بعضها مقدس ، وبعضها نجس . غير أن الرجل البــدائى لا يضع هذه الفروق الأخلاقيــة بينها . فالسمة المشتركة بين جميع هؤلاء الأشخاص فى اعتقاده هي وجود خطر منهم ووجــود خطر عليهم . وفى اعتقاده أيضا أن الخطر يتعدى الأشخاص الى الأشياء ، مثل المحظورات المتصلة « بالحديد » والتى تعود الى العصر الذى كان فيه الحديد شيــئا جديدا ، وبهذا يفسر الخــوف من الأسلحة الحادة التى يعتقد بأن الأشباح قريبة منها فى بعض الأحوال . ومن الأشياء التى يتصل بها « الحظر » اللحم النيء والدم . ومن القواعــد العامة أن الدم الملكى لا ينبغى اراقته على الأرض ، والتفســــير العام لمثل هذا التحريم يعود الى الاعتقاد بأن الروح في الدم ، وأن الأرض التى يسقط عليها تصبح بالضرورة محرمة أو مقدسة .

هنالك أيضا الحظر الخاص بالشـــعر ، ويجيء من اعتبار الرأس مقدسة الى حد أن فى لمسها أذى الى أن تصبح عملية قص الشعر عملية دقيقة وصعبة ، وأصبح التخلص من الشعر المقصوص ، مثل الأظافر ، أكثر صعوبة ، لأن صاحبهما يعتقد بأنه عرضة لمعاناة أى أذى قد يقع عليهما ، وقد أدى الخوف من السحر وتأثيره بكثير من النـاس الى اخفاء بقايا شعرهم وأظافرهم أو اعدامها .

ومن قبيل الحظر بالنسبة للأشياء ما يتصل بالعقد في الثياب وبالخواتم • وقد اعتقد أن التـأثير السحرى للعقد في إعاقة النشاط الانساني يظهر في حالات الزواج وفي حالات الولادة ، وفي كوارث المرض وغيرها من أنواع البليات • على إنه اذا كان قد افترض بأن العقـدة ربما تقتل ، فقـد افترض أيضا بأنها تشفى ، وقـد تستخدم الساحرة « العقد » لتكتسب حبيبا وتربطه اليها برباط وثيـق •

الكلمات المحظورة :

لما كان الرجل البدائي لا يستطيع أن يفرق بشكل واضح بين الكلمات والأشياء فهو عادة يتصور أن الرابطة بين الاسـم والشخص أو الشيء المسـمى به ليست مجرد علاقة عرفية ولكنها رباط حقيقى ومادى يوحـد الشيئين بطريقة تجعل من الممكن انفاذ السحر في شخص من خلال اسمه بنفس السهولة التى ينفذ بها من خلال شعره أو أظافره أو أى جزء مادى من شخصه •

وفي الحق فان الرجل البـدائى يعتبر اسمه جزءا حيويا من نفسه ويقوم برعايته وفقا لذلك ، ولهذا فـان بعض العشائر الاسترالية تعمد الى اخفاء أسماء أفرادها عن أن تعرف بشـكل عام خوفـا من استخدامها في السحر

للأضرار بأصحابهـا ، ولهذا السبب نفسه كانت أسماء المصريين القدماء مزدوجة يحتفظ بواحد منها سرا ٠

وعلى ذلك فانه يحظر نطق بعض الأسماء مثل أسماء الموتى عند بعض القبائل البدائية خشية أن يستدعى هذا النطق الأشـباح ٠ ولذلك لا يدهشـنا أن نعرف أن أعظم الاحتياطات قد اتخـذت لحراسة أسماء الملوك المؤلهـين والكهنة من الضرر بابقائها سرية على الدوام ٠

وننتقل مع المؤلف الى زاوية أخرى من الاهتمام البالغ بحياة الملوك والكهنة تساعد فى جلاء دواعى قتل ملك الغابة وارتباط هذا التقليد بالطبيعة ، ونقتحم فى الفصول التالية مجالات غريبة فى الممارسات والمعتقدات ٠

« قتل الملك المؤلـه »

لما كان الانسان البدائى الذى خلق آلهته قد جعلهم على شاكلته فقد افترض أنهم سـوف يصـيرون الى الفناء مثله ، وهذا الاعتقـاد نجـده حتى بالنسبة للآلهـة التى اعتبرت سامية كآلهة البابليين الذين لم يكونوا ليظهروا لعبادهم الا فى الأحلام والرؤى ، وبالرغم من ذلك فقـد تصوروهم بشرا فى أشكالهم وعواطفهم ، وفى مصيرهم ، وأنهم يولدون ويموتون ٠ فاذا كان هذا هو حال الآلهـة السامية التى تقر بعيـدا عن حيـاة الانسان الأرضيـة

المضطربة ، فليس هناك اذن ما يعصم الملوك المؤلهين من ملاقاة المصير نفسه ٠

وكما رأينا من قبل من أن الشعوب البدائية تعتقد أحيانا أن سلامتهم - بل وحتى سلامة العالم - مرتبطة بحياة واحد من هؤلاء البشر المؤلهين فان من الطبيعي أن تتخذ أعظم أنواع الرعاية لحياته ، غير أن الخطر يجيء من اتجاه آخر ٠ فاذا كان مجرى الطبيعة يعتمد على حياة هذا الإنسان المؤله ، فأى نكبة يمكن أن تقع من الوهن التدريجي لقواه وانطفائها نهائيا بالموت ؟

وليست هناك سوى طريقة واحدة لتوفى هذه الأخطار ، وهى أن الملك المؤله لابد وأن يقتل بمجرد أن تظهر العلامات المنبئة بأن قواه بدأت فى الضعف ٠ ويجب أن تنتقل روحه الى خليفة قوى قبل أن يتلفها نذير الانحطاط بصورة خطيرة ٠ وهنالك أمثلة عديدة لهذه النظرية وممارستها فى مناطق مختلفة من العالم ، وهى شبيهة بما كان جرى بالنسبة لملك الغابة فى نيمى الى حد كبير ٠

والمقارنة تضع امام أعيننا طائفة من الملوك المؤلهين يعتقد أن خصوبة الناس والحيوان والنبات تعتمد على حياتهم ، وأنهم قد قتلوا سواء فى مبارزة أو بطريقة أخرى بغرض أن تنتقل أرواحهم الالهية الى خلفائهم وهى فى

عنفوانها لا يدنسها الضعف أو وهن المرض أو الشيخوخة ، لان مثل هذا التدهور بالنسبة للملك فى رأى عباده يورث تدهورا مماثلا للانسان والحيوان والغلات ·

قتل الملوك فى نهاية فترات محددة :

فى بعض الأحيان لا يتم انتظار الملك المؤله أو الكاهن حتى تظهر عليه علامات الضعف ، فبعض الشعوب تفضل قتل الملك وهو ما يزال فى تمام قوته بعد فترة محددة معلومة تكون أحيانا اثنتى عشرة عاما كما فى جنوب الهند ، وأحيانا تسعة أعوام كما نجد فى التراث الاسكندنافى ، أو ثمانية أعوام كما كان متبعا عند الاغريق ·

ولقد وجدت محاولات كثيرة لتفادى هذا المصير ، كان يعمد الملك قرب نهاية الفترة المحددة الى التنازل عن العرش لفترة قصيرة يحكم خلالها ملك مؤقت يلقى المصير المختوم بدلا منه ·

وفى البدء كان يتم التضحية بشخص برىء قد يكون من أسرة الملك نفسه ، ولكن مع نمو الحضارة استعيض عن ذلك بالتضحية بشخص يكون قد اقترف جريمة ·

وفى الحالات التى يكون فيها بديل الملك من أسرته فان الغرض هو اظهار أن موت هذا الآخر سوف يخدم نفس الغرض الذى كان سيتأتى من قتل الملك نفسه ·

ولما كان الملك الذى سيقتل يعتبر الها أو شبه اله فان البديل لابد من احاطته ــ على الأقل حتى تنتهى هذه المناسبة ــ بصفات الملك الالهية ، وليس هناك من يستطيع تمثيل الملك فى صفاته الالهية مثل ابنه .

قتل روح الشجرة :

ان تفسير عادة قتل الأشخاص المؤلهين مقترنة بفكرة وراثة الروح أى انتقالها الى خلف القتيل ، وهى من الأفكار الشائعة عند البدائيين بالتأكيد . ولكن ما هو الضوء الذى تلقيه مثل هذه العادة على موضوعنا ؟

لقد سبق أن رأينا ما يدعو الى افتراض أن ملك الغابة فى نيمى كان يعتبر تجسيدا لروح الشجرة أو لروح النبات ، وأنه لهذا قد منح قوى سحرية تؤثر على النبات فى اعتقاد عباده ، ولذلك فقد اعتبروا أن حياته ثمينة وأحاطوها بنظام محكم من المحظورات ، وهذا التقدير نفسه هو الذى كان يحتم قتله بغرض أن تنتقل الروح الالهية المتجسدة فيه الى خليفته وهى فى عنفوانها .

والقاعدة التى تفرض أن يظل فى السلطة الى أن يقتله من هو أقوى منه قد يكون الغرض منها تحقيق الشيئين : الحفاظ على حياته الالهية فى قوتها ، وانتقالها الى خليفة مناسب بمجرد أن تبدأ هذه القوة فى الضعف .

والظن بأن ملك الغابة كان قديما يقتل عند نهاية فترة محددة ودون منحه فرصة للحياة يؤكده عادة قتل نظرائه من البشر الممثلين لروح الشجرة فى شمال أوربا بصفة دورية • وقد تركت هذه العادة آثارا واضحة فى الأعياد الريفية عند القرويين •

والغرض الذى كان يقصد اليه فى الحالتين واحد ، وهو أن الحياة الالهية المتجسدة فى مادة أو فى جسم يتلفها ضعف الوسيط الواهن ، ولانقاذها من ازدياد الوهن فلابد من انفصالها عنه بمجرد ظهور امارات التدهور لكى تنتقل الى خليفة قوى •

وأوجه التشابه بين هذه الشخصيات الأوربية الشمالية وبين ملك الغابة أو كاهن نيمى واضحة بما فيه الكفاية •

فمن بين هؤلاء الممثلين الشماليين المقنعين نرى ملوكا تدل ملابسهم المتخذة من لحاء الأشجار وأوراقها ، بالاضافة الى الكوخ المصنوع من الأغصان الخضراء حيث ينعقد مجلس بلاطهم ، على أنهم مثل نظيرهم الايطالى : ملك الغابة • وهم أيضا مثله يلقون ميتة عنيفة ، وفى امكانهم أيضا مثله تحاشيها لفترة من الزمن بقوتهم الجسدية ومهارتهم •

دفن الكرنفال :

إن معرفتنا القليلة بعادة قتل الملك المؤله وبتاريخها تجعل التفسير الذى قدمناه لها مجرد احتمال ، ولكن هذا الاحتمال يزداد اذا أمكن اثبات أن هذه العادة كانت تجرى فى المجتمعات البدائية ٠

ولقد اقتصرت دراستنا حتى الآن بالنسبة لموت الاله وبعثه على اله الشجرة ٠

ولكن ، اذا استطعنا أن نبين أن عادة قتل الاله والاعتقاد فى بعثه قد وجدت فى طور الصيد أو الرعى حين كان الاله المقتول حيوانا ، وأنها استمرت حية فى طور الزراعة حين كان الاله القتيل غلة أو انسانا يمثل الغلة ، فان التفسير الذى سبق تقديمه سيزداد احتمال صحته كثيرا ٠

فى احتفالات الربيع التى سبق ذكرها نجد مظهرين تتضح فيهما سمة موت الكائن المؤله ، فى أحدهما يكون الكائن الذى يمثل موته هو تجسيد للكرنفال ، وفى الآخر يكون هو الموت ٠ نفسه ٠ وفى بعض احتفالات الكرنفال يمثل الكرنفال برجل وأحيانا يمثل بدمية من الكرتون يحملها أربعة من حفارى القبور وفى مقدمة الموكب تسير زوجة الكرنفال فى ملابس الحداد ٠ وأحيانا يمثل

بصور أخرى احتفالية تنتهى باحراقها أو دفنها • كذلك يمثل أحيانا « بعث » هذا الميت المزعوم •

وشعائر تشييع الكرنفال تشبه كثيرا شعائر تشييع الموت نفسه فيما عدا أن تشييع الموت يتبعه أو يصاحبه احتفال باستدعاء الصيف أو الربيع أو الحياة •

وبينما يمثل « الموت » بدمية تطرح بعيدا فان الصيف أو الحياة تمثل بأغصان أو أشجار يعود بها المحتفلون معهم • ونجد من ذلك ما يدعونا الى اعتبار طرد الموت واستدعاء الصيف ، على الأقل فى بعض الحالات — صورة أخرى لموت روح النبات وبعثها فى الربيع ، وأن هذه الشعائر وما يشابهها — هى طقوس سحرية ، أو أنها كانت فى نشأتها طقوسا سحرية تهدف الى ضمان تجدد الطبيعة فى الربيع •

أسطورة ادونيس :

لقد دفعت مشاهدة التغيرات السنوية التى تحدث على سطح الأرض بالناس الى التفكير فى أسبابها ، وادراك العلاقات بينها وبين حياتهم • وفى مرحلة معينة من التطور تصور الانسان فى نفسه القدرة على التحكم فى الطبيعة بواسطة السحر •

ولكن بمرور الوقت وتقدم المعرفة حل تصور جديد بأن الطبيعة خاضعة لقوى عظيمة • وهكذا حلت محل النظرية السحرية القديمة نظرية دينية • وعلى الرغم من أن الناس قد قرنوا تغير الفصول بتغير الآلهة ، الا انهم ظلوا يعتقدون أنهم بممارسة طقوس سحرية معينة يمكنهم مساعدة الاله الذى كان أساس الحياة فى صراعه ضد الموت • وأكثر مما نجد هذه الطقوس فى البلاد الواقعة شرقى البحر المتوسط حيث كان يمثل تغير الحياة السنوى بأسماء : أوزوريس ، وتموز ، وأدونيس ، وأتيس ، وبصفة خاصة الحياة النباتية التى كانت تتجسد فى اله يموت كل عام ويبعث ثانية •

ولقد كان يعتقد أن تموز أو أدونيس يموت كل عام ، وأن عشيقته الالهة « عشتار » ترحل بحثا عنه ، وأثناء غيابها تتوقف عاطفة الحب فيتوقف الخصب وتتهدد الحياة بالانقراض • وحين تعود برفقة حبيبها تنتعش الطبيعة كلها •

ولعل أكبر دليل على أن أدونيس كان الها للنبات وبخاصة للغلة هو حدائق أدونيس ، وهى عبارة عن سلال أو أوان تملأ بالطين وتبذر فيها أنواع مختلفة من النبات ، وكانت تحمل مع تماثيله وترمى فى البحر أو فى الينابيع • وهى طقوس شبيهة بطقوس الكرنفال ، والموت فى أوربا فى الأزمنة الحديثة •

أســـطورة أيتمس وطقوســـه :

وأتيس مثل أدونيس كان الها للنبات. وكان موتـه وبعثه تقدم الشعائر له في الربيع في كل عام • وأساطير الالهيين وطقوسهما متشابهة كثيرا الى درجة أن القـدماء اعتبروهما متطابقين • ويقال بأن أتيس بعد موتـه قد تحول الى شجرة صنوبر • والى هذه الفكرة تعود صفتـه الأصلية كروح للشجرة • واعتقد انه يسيطر على جميع الثمار شأنه في ذلك شأن أرواح الشجر بصفة عامة •

أسطورة أوزوريس :

هنالك من الأسباب ما يدعو الى مقارنة ايزوريس في واحد من مظاهره بأدونيس ، وأتيس أي كتجسيد للتغيرات السنوية العظيمة للطبيعة ، وبصفة خاصة للغلة • غير أن المكانة الفائقة التي أسبغت عليه في عصور كثيرة أغرت عباده المخلصين بأن يخلعوا عليه كثيرا من صفات الآلهة الآخرين وقدراتهم •

لقـد كان أوزوريس يتصـور ويتمثـل كتشخيص للغلة ، يموت ويعود الى الحياة كل عام • وقد جـاء هذا التصور « كاله للغلة » بوضوح من الاحتفال بموته وبعثه ، ولكنه كان أكثر من روح للغلة ، اذ كان أيضا روح شجرة، ومن المحتمل أن ذلك كان صفته البدائية •

وكان من الطبيعي باعتباره الها للنبات أن يجري تصوره كاله للنشاط الخلقي بصفة عامة اذ أن الناس فى بعض مراحل التطور لم يستطيعوا التمييز بين قوى التناسل لدى الانسان والنبات . وقد فسر أحيانا كاله للشمس بسبب ارتباط قصة موته بالظواهر الشمسية . بشكل أفضل من ارتباطها بأية ظاهرة أخرى فى الطبيعة .

ديونيسيس :

ان ديونوسيس أو باخوس معروف لدينا جيدا كممثل للكروم وللبهجة التى يحدثها عصير العنب . وقد دعا التشابه الذى تمثله قصته وطقوسه بأوزوريس بعض الباحثين القدماء والمحدثين الى اعتبار أنه ليس سوى أوزيريس متنكرا ، وأنه قد جلب مباشرة من مصر الى اليونان .

ولم يكن ديونيسيس الاله الاغريقى الوحيد الذى تظهر قصته المفجعة وطقوسه ذبول النبات وبعثه . فهذه القصة القديمة تعود الى الظهور فى شكل آخر واستخدام مختلف فى اسطورة « ديمتر » و « برسفون » اللتين تماثلان بصفة أساسية أسطورة : أفروديت (عشتروت) وأدونيس ، وسبيل وأتيس ، وايزيس وأوزيريس . وفيها جميعا الربة التى تندب حبيبها الذى يمثل الخصب ، وبصفة خاصة الغلة التى تموت فى الشتاء لتبعث فى الربيع .

وهنالك أسباب مستقلة لاعتبار ديمتر كأم للغلة ، ومن المعتقدات الشائعة في شمال أوربا أن أم الغلة تجعل المحاصيل تنمو ، وتلعب كذلك دورا هاما في عادات الحصاد ، ويعتقد أنها تتمثل في آخر بضعة عيدان تترك بغير حصاد • وترتبط بها ممارسات ومعتقدات كثيرة •

وهنالك مشابه كثيرة بين عادات الربيع التي سبق وصفها • فكما أن روح الشجرة في عادات الربيع تمثل بشجرة وبشخص ، فكذلك تمثل روح الغلة بآخر حزمة وبالشخص الذي يحصدها أو يحزمها أو يدرسها • وفي كليهما نفس تأثير الاخصاب • وأيضا في الطقوس التي تمارس في كلتيهما ، وهي طقوس سحرية أكثر منها استعطافية تستعين بالشعائر التي يعتقد أنها تؤثر في مجرى الطبيعة بطريقة مباشرة •

ويشير فريزر الى نظرية العالم الألماني « ولهلم » في محاولة لتفسيرها ، W. Mannhardt مانهارت فيقول بأن روح الغلة تعلن عن نفسها ليس فقط في النبات ولكن في شكل بشري ، فالشخص الذي يحصد آخر حزمة أو يفضض آخر حبات الدرس يعتقد أنه تجسيد لروح الغلة بصورة مؤقتة مثله مثل حزمة القش التي قام بحصدها أو درسها •

ثم ينقلنا الى فكرة أخرى في عادات الحصاد التى تحتوى على مفهومين متميزين لروح الغلة ، ففى بعض العادات تعامل روح الغلة باعتبار أنها قد حلت فى الغلة ، وفى بعضها الآخر تعتبر خارجة أو منفكة عنها ، والتصور الأول أقدم من الثانى ·

قتل روح الغلة :

فى بعض عادات الحصاد القديمة كان يقتل الشخص الغريب الذى يمر بالحقل أثناء الحصاد لأنه يعتبر كتجسيد لروح الغلة ، وبمقارنة هذه العادة بممارسات الحصاد الأوربية نجد فى الأخيرة الاعتقاد بأن روح الغلة تقتل غالبا أثناء الحصاد أو الدرس ·

وفى ألمانيا نجد الحصادين أو الدارسين يقبضون على الغرباء العابرين ويقيدونهم بحبل يجدلونه من حطب الغلة حتى يدفعوا فدية · كذلك فى عادات الحصاد الحديثة أن الشخص الذى يحصد أو يحزم أو يدرس آخر عود من الغلة يعتبر تجسيدا لروح الغلة ويجرى تمثيل عملية قتله بأدوات الزراعة والقائه فى الماء ·

وتماثل الطقوس البدائية عادات الحصاد الأوربية الحديثة فى مظاهر كثيرة فمثلا العادة البدائية بمزج دم

الضحية أو رمادها ببذور الغلة تماثل العادة الأوربية من خلط حبوب آخر حزمة بالغلة الجديدة في الربيع .

وفي بعض الأحيان تظهر روح الغلة في هيئة حيوان ــ في المعتقدات القديمة ــ ولهذا فقد كان يتم القبض على هذا الحيوان الذي تتمثل فيه روح الغلة ويذبح ويؤكل في عشاء مقدس . وأحيانا يستعاض عن الحيوان الحقيقي بصنع نوع من الخبز على صورة الحيوان ويؤكل أيضا في عشاء مقدس .

أكل الإلـه :

لقد رأينا أن روح الغلة تمثل أحيانا في شكل بشرى، وأحيانا في شكل حيوان وفي كلتا الحالتين فانها تقتل في شخص ممثلها وتؤكل بصورة شعائرية .

ويعتبر عشاء الحصاد عند الفلاحين الأوربيين مثالا واضحا لهذه العادات القديمة . وعادة أكل الخبز بصورة تطهيرية أو طقوسية باعتباره جسد الـه كانت تمارسها عشائر الأزتك قديما ، وصنع أرغفة من الخبز على هيئـة ملك الغابة في الأيام القديمة .

وتفسير هذه الممارسات يعود الى اعتقاد البدائيين بأن أكل لحم حيوان أو انسان يكسب الآكل صـفاته الجسـدية والعقلية التي يمثلها هذا الحيوان أو الانسان ، واذن فان

ومثل هذه العادات السابقة التى رأيناهـا فى آكل جسد الاله يجعل الآكل مشتركا فى صفاته وقدراته . المجتمعات التى بلغت مرحلة الزراعة نجدها أيضا عند القبائل التى تعيش على الصيد أو الرعى ، فنجد بينها جميعا عادة قتل الكائنات المعبودة . وهنالك أمثلة عديدة للحيوانات المقدسة التى يجرى قتلها ، مثل الكبش المقدس فى مصر القديمة ، والثعبان المقدس فى أفريقيا ، والدب المقدس فى اليابان قديما وفى شرق سيبيريا .

استعطاف الصياد للحيوان :

لما كان الرجل البدائى يعتقد بأن الحيوانات قد منحت شعورا وذكاء مثل الانسان ، وأنها مثله لها أرواح بالتجوال كأرواح مجردة ، أو بالميلاد مرة أخرى فى شكل تستطيع النجاة من الموت الذى يلحق جسومها سواء بالتجوال كأرواح مجردة ، من أجل ذلك فان عملية قتل الحيوان وأكله تختلف فى تصوره عما يمثله هذا الفعل بالنسبة الينا .

ولذلك فان الصياد البدائى يعتقد أنه يقتل الحيوان يعرض نفسه للانتقام أما من روح الحيوان المتجردة ، وأما من جميع أفراد عشيرة الحيوان الذى قام بقتله ، والتى يعتبرها عشيرة واحدة مترابطة برباط الدم مثل الناس . ولهذا فهو يتحاشى قتل هذه الحيوانات الوحشية مثل

التمساح والنمر والتى لا يوجد باعث ضرورى لقتلها الا فى حالات الثأر أو الدفاع عن النفس ·

غير أن الرجل البدائى لا يستطيع تجنب قتل جميع الحيوانات والا مات جوعا ، ولذلك فهو مضطر لقهر هذا التوجس النابع من معتقداته الخرافية ، فيقتل بعض هذه الحيوانات ، وفى الوقت نفسه يعمل على استعطاف ضحيته وعشيرتها ،ويقوم أحيانا بطقوس الرقص لتكريمها ·

أنماط الحيوانات المقدسة :

تنحصر العبادة البدائية للحيوان فى نمطين متقابلين من بعض الوجـــوه ، فالحيوانات تعبد وعلى ذلك فانها لا تقتل ولا تؤكل · ومن ناحيـــة أخرى ، تعبد الحيوانات لانها فى العادة تقتل وتؤكل ·

وفى كلا النمطين من العبـــادة فان الحيوان يوقـــر بسبب بعض المنافع الايجابية أو الســـلبية التى يأمل البدائى الحصول عليها ·

وطبقا لهذين النمطين فان هنالك نمطين متميزين من عادة قتل الاله الحيوان هما :

١ ــ النمط المصرى : (الحيوان المتروك عادة) ·

٢ ــ النمط الأنيوي نسبة الى « أنيو » باليابان ، ويسمى النمط التكفيرى : (الحيوان الذى تقتله القبيلة فى العادة) •

نقل الشرور :

ان أحد البواعث التى دعت الى وجود هذه العادة الغريبة وهى قتل الاله هو الاعتقاد بأن الشقاء والذنوب المتراكمة على الناس بأجمعهم توضع أحيانا على الاله المقتول الذى يفترض أن يحملها بعيدا الى الأبد تاركا الناس مطهرين وسعداء •

وفى بعض الأحيان تستخدم الحيوانات كأوعية لحمل الشرور بعيدا أو نقلها ومنها المرضى والأرواح الشريرة ، وأحيانا يلعب لناس دور كبش الفداء فتتحول اليهم الشرور التى تهدد الآخرين • والرقص من الوسائل التى تستخدم لابعاد الروح الشريرة عن المريض وانتقالها الى جسد الراقص ، وأحيانا يكون القتل الذى يوقع بأحد الأشخاص لأبعاد الشر عن القبيلة • ومثل هذه المحاولات لنقل الأمراض والآثام من شخص الى غيره نجد أنها كانت شائعة بين الأمم الأوربية قديما وحديثا •

كذلك فان هذا الأمر يصدق على محاولة نقل الألم أو المرض من الانسان الى الحيوان أو الى الجماد ، وأكثرها

استخداما فى أوربا كأوعية للأمراض والبلايا بأنواعها هى الشجرة وبعض أنواع النبات مثل الكتان .

ولقد استخدمت وسائل مشابهة لتحرير المجتمع بأكمله من الشرور المختلفة بالطرد الجماعي للشرور دفعة واحدة ، وذلك بطرد الشياطين أو الأشباح التى يعتقد البدائى بأنها سبب معظم متاعبه .

الغصن الذهبى

ولما كنا قد أوفينا على نهاية الكتاب ، فقد بقى أن نجيب عن السؤال الثانى من الموضوع الأصلى ، بعد أن تمت الاجابة عن السؤال الأول المتصل بقتل كاهن أريشيا لسلفه .

والسؤال الآن هو : ماذا كان الغصن الذهبى ؟ ولماذا كان يجب على كل متنافس على عرش الكهنوت فى أريشيا أن ينتزعه قبل أن يقتل سلفه ؟

فى أسطورة « بلدر » الاله الاسكندنافى نجد أن مقتله كان بغصن من شجرة الدبق Mistletoe التى نجدها فى الكريسماس ، وهذا الغصن يتصل اتصالا وثيقا احتفالات النار فى أوربا التى كان الفلاحون يقومون بالرقص حولها والوثب فوقها لضمان حصاد وفير .

وقد قتل « بلدر » بغصن من الدبق وأحرق في نار عظيمة ، ولقد كان الغصن منذ أزمنة سحيقة موضوعا لتوقير خرافي في أوربا بلغ حد العبادة . والحديث في هذا الصدد يثير موضوعا آخر هو « الروح الخارجية » اذ نجد في الحكايات الشعبية أن حياة الانسان ترتبط أحيانا بحياة نبات معين ، وأن ذبوله يعقبه موت الشخص مباشرة .

وما دامت حياة « بلدر » في هذا الغصن فمن الطبيعي أن يموت بضربة منه ، اذ أن تصور أن حياة انسان متجسدة في شيء معين أن هذا الشيء يعتبر حياته وموته كما يحدث في الحكايات الشعبية . كذلك تجيء فكرة أن حياة شجرة البلوط في هذا الغصن من الملاحظة ، ففي الشتاء نرى أن أغصان « الدبق » التي تنمو على شجر البلوط تظل خضراء بينما البلوط نفسه تسقط أوراقه ، وعلى ذلك فربما نبع الاعتقاد بأن روح البلوط تحفظ حياتها في هذا الغصن .

وليست فكرة جديدة أن الغصن الذهبي كان غصن شجرة الدبق ، وفي المعتقدات الشائعة أن غصن الدبق يشتعل في أوقات معينة بوهج ذهبي خارق .

وفي حديث « فرجيل » عن الغصن الذهبي نجد حمامتين تقودان « انياس » الى واد معتم ينمو في أعماقه الغصن الذهبي متوهجا فوق شجرة . وأنه كغصن الدبق فوق شجرة بلوط دائمة الخضرة .

والآن فقد وضحت الأسباب التى تدعو الى الاعتقاد بأن كاهن غابة أريشيا (ملك الغابة) كان يمثل الشجرة التى ينبت منها الغصن الذهبى ، فاذا كانت الشجرة شجرة بلوط فلابد أن ملك الغابة كان ممثلا لروح البلوط • واذن فمن اليسير أن نفهم لماذا كان ضروريا كسر الغصن الذهبى قبل امكان قتله ، وباعتباره روح شجرة بلوط فان حياته أو موته كانت فى غصن الدبق النابت عليها ، وطالما بقى الغصن دون أن يمس فانه مثل « بلدر » لا يمكن أن يموت •

ولكى تكتمل المقارنة يلزم أن نفترض أن ملك الغابة كان فيما مضى ميتا أو حيا فى احتفالات النار فى منتصف الصيف التى كان يحتفل بها كل عام فى غابة أريشيا وهذه النار كانت تغذى بخشب البلوط المقدس •

وفى حقبة متأخرة فان سلطانه كان يطول أو يقصر طبقا للقاعدة التى تسمح له بالحياة بقدر ما يستطيع اثبات حقه الالهى بقوة ساعده ، ولكنه كان ينجو من النار ليقتل بالسيف •

« تعقيب »

الآن ، وبعد أن عرضنا الأفكار الأساسية التى تضمنها هذا الكتاب مرتبة بما يكفى أن يعطى للقارىء صورة عامة عن موضوعاته التى حشد لها « فريزر » هذه

المادة الغزيرة ونسق بينها محللا ومقارنا بما يشهد لـه بسعة المعرفة والجهد الكبير الذى شهد له به الدارسون ٠ فقد بقيت كلمة ينبغى أن تقال ، وتتلخص فى أن الدارسين وبخاصة أصحاب المنهج التاريخى الجغرافى لم يتفقوا مع « فريزر » فى النتائج التى وصل اليها ، انهم يعارضون أساسا اتجاه مدرسة علم الانسان البريطانية ، ويرفضون فكرة الارث أو بمعنى أدق الاقتصار عليها ، ويرفضون فكرة أن الثقافة تتطور بصورة متوالية ، ويقررون أن لكل نبذة فى الفولكلور تاريخها الخاص ، وأنه يجب دراستها مستقلة عن غيرها ، وقد دعوا الى جمع مواد التراث كما هى فعلا دون أن يقحم عالم الفولكلور تعليلاته المسبقة بقدر ما يمكنه بالنسبة للدوافع البدائية التى أوجدت الفولكلور ٠

ونود هنا أن نعـرض رأيين أولهما هو رأى العالم الأمريـكى « ستيث طومسون » فى « الغصن الـذهبى » وخلاصته انه بالرغم من القيمة العظيمة للمادة التى قام « فريزر » بجمعها فان النتائـج المستخلصة منها ليست بالتأكيد بالصورة التى أبرزها فريزر ٠ فقد عرض جزئيات القصص والممارسات والعقائد المتطابقة عمليـا بين الهنود الأمريكيين والسكان الوطنيين فى استراليـا وفى جنوب أفريقيا ٠ والدعوى هى أن جميع الشعوب قد مرت بنفس المراحل الثقافية فى خط مباشر من التطور ، وأنه فى كل مرحلة قد تأثروا بالعالم وعبروا عن أنفسهم بنفس الطريقة ٠

وأنه فى المراحل الراقية قد توجد « موروثات » من المراحل المبكرة ، وهكذا فبين القرويين الأوربيين توجد أشياء غريبة ترجع الى وقت كانت فيه مادة للاعتقاد أو ممارسة فعلية ·

هاتان النظريتان أعنى : نظرية التطور المباشر والمتوازى للثقافات · ونظرية الموروثات الباقية فى الثقافة قد دفعت بعض علماء الفولكلور الى دراسة الحكايات الشعبية على أنها أساسا نتاج الثقافة البدائية ، وأنها مليئة بجزئيات تعود الى حقبة بعيدة فى أوربا وآسيا ، وقاموا بجمع النظائر من بين الشعوب البدائية ·

واكتشافات هؤلاء الدارسين ، ومنهم « فريزر » ذات أهمية قصوى ، ولكنهم قد أغفلوا اعتبارين من الأهمية بحيث يفقران عملهم كثيرا من قيمته · وأحدهما هو أن الثقافة نوع من أنواع التطور التاريخى لكل شعب ، وأنها تخضع لجميع أنواع التأثيرات الخاصة داخلية وخارجية ، وعلى ذلك فان زعم التوازى بين الثقافات المختلفة وخاصة اذا كانت متباعدة هو زعم ليس له ما يبرره · كذلك فان مثل هذه الدراسات قد بخست من قدر الدور الذى لعبه انتشار عناصر الحياة القبلية ، وأنها قد أعطت اهتماما غير كاف للمشاركة الكبيرة فى الاهتمام بين الشعوب فى داخل « المناطق الثقافية » ·

أما الرأى الثانى فهو رأى العالم السويدى « فون سيدو » ، وهو ينقد ابتداء اتجاه المدرسة البريطانية فيما يتعلق بنظراتها الى التراث التى لم تنشد فيه سوى المعتقدات والطقوس ، وانهم لم يكونوا يبصرون سوى « الموروثات » الباقية من الوقت الذى كانت فيه الشعوب الأوربية شعوبا بدائية ، ويقول انهم قد نسوا بأنه حتى فى وقتنا الحاضر فان الأفكار البسيطة ما تزال حية تجد لها دائما أشكالا جديدة من التعبير . ويقول أيضا ان كثيرا من « النظائر » التى حصروا أنفسهم فى طريقها زائفة ولا تبرهن على شىء . ويقول بأن هذه النظائر لكى تفهم فهما صائبا لابد أن تعرض فى علاقتها بالمأثورات الأخرى فى نفس المنطقة التى وجدت فيها ، وأيضا فى علاقتها بالظروف السائدة فى هذه المنطقة .

وينقد « فريزر » بشدة لتبنيه نظريات عالم الميثولوجيا الألمانى « مانهارت W. Mannhardt » عن روح

الأشجار والنبات ، وعادات الربيع والحصاد ، ويقول انه بالرغم من اتساع معرفة فريزر وعمقها وذكائه اللامع فانه لم يكن مهيئا بما فيه الكفاية ليضع الاجابات الملائمة بأكثر مما فعل علماء الأساطير الألمان ، وفى رأيه أن فريزر لم تتح له الفرصة للحصول على مفهوم واضح لحياة التراث وخصائصه عن طريق الاتصال الشخصى الوثيق بالقرويين

الأوربيين ، ولم تتح له كذلك الألفة بعالم الأقطار القروية ، والذى لابد منها لتحقيق المقدرة على حل المشكلات المتعلقة بها .

ولعل « فريزر » فى مقدمة الطبعة الموجزة من « الغصن الذهبى » قصد أن يوضح موقفه من هذه القضية الأخيرة ، وان كان لم يشر صراحة الى « فون سيدو » أو غيره . يقول فريزر : اذا كنت فى هذا الكتاب قد أسهبت فى الحديث عن « عبادة الأشجار » فليس السبب ، أننى أبالغ فى أهميتها فى تاريخ الدين ، وليس أيضا لاننى قد استقرئ منها نظاما كاملا للميثولوجيا ، وانما السبب ببساطة هو أنه لم يكن بوسعى أن أتجاهل الموضوع فى محاولتى تفسير أهمية الكاهن الذى يحمل لقب ملك الغابة والذى كان حقه فى السلطة يقوم على انتزاع غصن من شجرة فى الغابة المقدسة . ولكننى أبعد ما أكون عن اعتبار توقير الأشجار بأنه ذو أهمية قصوى بالنسبة لتطور الدين الذى أعتبر أنه قد خضع كلية لعوامل أخرى وبخاصة الخوف من الموتى الذى أعتقد بشكل عام أنه ربما كان هو العامل الأكبر فى تشكيل الدين البدائى .

وأملى أننى بعد هذا التفنيد الواضح للمزاعم الا أتهم مرة أخرى باحتضان نظام للميثولوجيا أراه ليس فقط زائفا ، وانما غير معقول ومثيرا للسخرية .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٠١٠/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 3862 — 2

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى عشرة قروش
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

مطابع
الهيئة المصرية ال